مجموعة قصصية

خلف الأضواء

الطبعة الأولى
1439 هـ
2018 م

اسم الكتاب:	خلف الأضواء
التأليف:	سماح بادبيان
موضوع الكتاب:	مجموعة قصصية
عدد الصفحات:	142 صفحة
عدد الملازم:	9 ملازم
مقاس الكتاب:	14 × 20
عدد الطبعات:	الطبعة الأولى
رقم الإيداع:	27928 / 2017
الترقيم الدولى:	ISBN : 978 - 977 - 278 - 663 - 3





دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01012355714 - 01152806533

مجموعة قصصية

خلف الأضواء

بقلم/ سماح باديان



إهداء

لِذَوي القُلُوبِ التِي مَا بَرِحَتْ رُغْمَ قَسْوَةِ الوَاقِعِ
تَنْبِضُ بِحُبِّ الآخَرِينَ!

،، ليسَ للقُلُوبِ أَرضٌ تَنتَمِي إِلَيهَا..

فَوَطَنُ القُلُوبِ قُلُوبٌ أُخرَى أَحَبَّتهَا

وَسَكَنتْ فِيهَا،،

سماح باديان

آمال مبتورة

بيدين مرتعشتين تناولتْ ألبوم الصُّور وفتحتْه على آخر صورة فيه، قرَّبتْها من عينيها الغائرتين لتقرأ ذاتَ الكلمات التي تقرأها كل يوم: (رحل بتاريخ.....) ودمعاتها تسيل على خدَّيها بغزارة، وصدرها يعلو ويهبط في نشيج مكتوم، ثم تشمُّها، وتضمُّها إلى صدرها بحنان كأنَّما تضمُّ مَن فيها..! وهنا لا تستطيع كتم أشواقها المشبوبة، وآهاتها المكبوتة، فيرتفع النحيب، ويخالطه صوت ندائها الحزين لذاك الغائب، الذي لم يبقَ من ذكراه إلا هذه الصورة، وبضع شهادات وأوراق تحتفظ بها العجوز في صندوق نحاسيّ مقفل يقبع تحت سريرها، وتحمل مفتاحه على عنقها بحرص منذ عشر سنوات!

أسرعتُ إليها حين سمعتُ نحيبها يرتفع، وضممتُ رأسها الأشيب إلى صدري، حتَّى هدأتْ وانتظمتْ أنفاسها... أعطيتها حبَّة الدواء المهدّئ، وجرَّعتها قليلًا من الماء، فسكنت على سريرها، وما زالت قطرات الدَّمع تسيل على وجنتيها، تحفر أخاديد في قلبها المتعب.. حتى نامت!

مسحتُ أثار الدموع، وأخذتُ ألبوم الصُّور من بين يديها، وانتزعتُ تلك الصُّورة منه، ومكثت أتأمَّلها...

كنتُ بجانبك في الصورة، يدك اليمنى تحتضن يدي، وبيدك الأخرى تُمسك مِقبض حقيبتك وتبتسم!

هذه كانت آخر ذكرى تركتها لنا.. ضممتها إلى صدري، وأنا أستنشق عبير تلك اللَّحظات الأخيرة.. أرتشف من بقايا الذكرى عبقًا من الأمل، لأستمرَّ في الحياة!

كانت السَّاعة قد تجاوزت الثانية ليلًا، والظَّلام والسكون يلفُّ المكان، إلَّا من ضوء خافت يُشع من غرفتنا، وأنا وأنت وحدنا نُلملم ثيابك، وكتبك، وبقايا أحلامنا..!

أعدتُّ سؤالي كأن لم أسألك إيَّاه طوال الأسبوع الماضي مرتين أو أكثر في اليوم:

– لماذا سترحل؟

وأعدتَّ جوابك كأن لم تُجب عليه أبدًا من قبل:

– من أجلكم سأرحل!

في أعماق اللَّحظات الحزينة لا نعي سذاجة أقوالنا وغرابتها! وكأنَّما ينزوي العقل فيها جانبًا، تاركًا للقلب حريَّة التصرف! كان لا بد أن ننام، ولكنَّ النَّوم جافى أجفاننا! فبتَّ تمسح قطرات دمعي الفارَّة من سلطان إرادتي.. وبتُّ أسألك عن جدوى رحيلك..!

صدى عباراتك ما زال يتردَّد في رأسي..

– لقد سُقينا من كأس المذلَّة والهوان حدَّ الثمالة، وتنفَّسنا العفونة على أرضنا حتَّى مرضنا، آن لنا أن نتطلَّع إلى الحريَّة والكرامة، إلى الهواء النَّقي نعبُّ منه ملء صدورنا، إلى مستقبل أفضل! إنَّ وطنًا تختنق فيه أحلامنا، وتُغتال طموحاتنا ومواهبنا، وتموت على أرضه حقوقنا، لوطن عَقوق لا يستحقَّنا!

همستُ باستنكار:

- ولكنَّه يبقى وطننا!

وضعتَ يدك على موضع قلبي، وقلت:

- الوطن ليس مجرَّد حُفنة التُّراب التي نعيش عليها... الوطن هو جميع المعاني السَّامية التي تعيش فينا! هو لا يعني فقط الأرض التي وُلدنا فيها... بل يعني مشاعر العزة والكرامة التي تتولد فينا كلما سرنا على هذه الأرض!

كنتُ أُدرك جيدًا وضعك، والظُّروف الصَّعبة التي شوَّهت بقسوتها ملامحَ أفكارك القديمة، فكم أُغلِقت في وجهك أبواب حسبتَها يومًا ستُفتحُ على مصراعيها لك! وكم تكسَّرت آمالك على صخرة الفساد التي لم تلقِ لها يومًا بالًا!

أتذكَّرُ اليومَ الذي عُدت فيه بصفيحة (جاز) تسكبها بجنونٍ على ملف شهاداتك، وتصرخُ باحثًا عن الكبريت لتحرقها؟.. لولا أن أنقذتها عمَّتي، حين احتضنتْها بقوَّة، وصرختْ بك:

- (إن كنتَ ستحرقها فاحرقني معها، فأنا مَن علمتك!)

فتراجعتَ، وعاد إليك وعيك، وجلستَ على الأرض تبكي لأوَّل مرَّة في حياتك، وتهتف:

- (الملاعين.. سرقوا وظيفتي!)

وألقيتَ الصحيفة -التي ما زالت تحتفظ بها عمَّتي في صندوقها- على الأرض، ورأيتُ على القائمة الطويلة المنشورة فيها اسمك كاملًا، واسم الوظيفة التي عُيّنت فيها ولم تستلمها أبدًا!

ولكنّي – رغم ذلك– ظللتُ أحاورك بعناد:

–   وما الذنب الذي اقترفناه حتى تلفِظنا أوطاننا كما يلفِظُ البحر الجيَف؟

فزفرتَ بحرقة كمن طُعِنت جراحه فعادت للنزيف، وقلت:

–   ذنبنا أنا لا نملك نسبًا رفيعًا نختم به أسماءنا، ولا حُفنة من المعارف ذوي المناصب العالية يضعون وسْمَ بركتهم على جواز مرورنا نحو مستقبلنا الآمن! لقد بتنا غرباء في أوطاننا!

حين التقينا أوَّل مرَّة على مقاعد الدّراسة في الجامعة، كنتَ شابًّا مثابرًا طموحًا إلى أبعد الحدود، تكاد أحلامك تلامس عَنَان السماء! وكنتَ تقرأ الكتب بشغف، وتقرِض الشّعر، وتشارك في كلّ نشاط اجتماعيّ أو أدبيّ!

وكنتُ خجولة وهادئة، مُغرمة بقراءة دواوين الشّعر وكتب الأدب، أراقبك من بعيدٍ بصمت، ولا أجرؤ على المشاركة معك في الأنشطة كتلك الثلَّة من الفتيات التي كانت تُحيط بك!

على مقاعد المكتبة الهادئة عرفتني..! كنتُ مندمجة في قراءة ديوان شعر، وأحرّك قدمي بتلقائية، فأصدم بها ساق الطَّاولة أمامي، ثمَّ أُعيدها نحوي... وكنتَ على المقعد المقابل لي تقرأ نسخة أخرى من ذات الديوان، ولم أنتبه لك!

وفجأة أحسستُ بأنَّ قدمي لم تعد تصدم الطاولة في أثناء حركتي لها، وأنَّ شيئًا ما تحرَّك من مكانه! فحنيتُ رأسي للأسفل؛ لأكتشف أنَّ ما كنتُ أصدمه بقدمي لم يكن ساق الطاولة، بل ساقك أنت! فأبعدتَها حين طال منّي الأمر وآلمتْكَ ساقك!

اعتذرتُ لك حينها مطوَّلًا، وحُمرة الخجل تصبغ وجهي، وكنتَ تبتسم، وتضحك، وتطيّب خاطري، وأنا أزداد تلعثمًا وارتباكًا وخجلًا...!

لاحقًا، وبعد زواجنا، أخبرتني أنَّك أصبحتَ تراقبني منذ ذاك اليوم! تفتّش عن اسمي ودرجاتي على لوحة الإعلان، وتنتبه لما أقرأ وأستعير من كتب في المكتبة، وأنَّ أكثر ما شدَّك نحوي هو شخصيَّتي الحيَّة الوقورة، وحجابي السابغ!

توقَّع لنا الجميع مستقبلًا زاهرًا، وحياةً مُيسَّرةً سهلةً يوم زفافنا.. ولكنَّ ظروف البلد خيَّبت آمالهم وآمالنا!

تأبَّطت ملف شهاداتك بين يديك، وطُفْتَ به أرجاء المدينة من مرفقٍ لآخر، ترتجي وظيفة تليق بطموحاتك، وتناسب مستواك العلمي، وثقافتك!

كافحتَ الحياة كفاحًا مريرًا، كان يؤلمك أن ترى جمالي يذوي تحت وطأة الفقر.. وقد أخذتني من أهلي غضَّة بضَّة! فعملتَ حارسًا، وبوابًا، وافترشت بسْطَةً، وبِعتَ الفواكه والخضار، وساعدتَ صيَّادًا، ونجَّارًا، وحدَّادًا، وكتبت عشرات المقالات والأشعار في الصحف والمجلات، تعرض أفكارك، وترسم أحلامك، وتتغزَّل بالوطن، وجمال شواطئه، وطيبة أهله... ثم عَدَلتَ عن ذلك كلّه، فبِتَ تكتب منتقدًا الفساد، مهاجمًا الظلم، مناشدًا السُّلطات أن تهتمَّ بالشباب، وترعى طموحاتهم... حتى سُجنت!

خرجتَ من السجن بعدها شخصًا آخر، يائسًا، منكسرًا، غريبًا، ليس كما عهدناك!

ابتلعتَ الخيبات واحدةً تلوَ الأخرى بصبر وشجاعة.. حتى خارت قواك، وتحطَّمت معنوياتك، فقرَّرت أن ترحلَ مغتربًا!

عشر سنوات عجاف مضت علينا منذ اليوم الذي أتيتني فيه تطلب بيع أقراطي، وأساوري، وخاتم زواجي، لتشتري (فيزا) وتغترب من أجلنا كما قلت..!

فوهبتُها لك... ورحلتَ!

أرسلتَ إلينا في أوَّل عامٍ الكثير من الرسائل، وقصائد الغزل والشوق، وبعض المال...

وأرسلتَ إلينا في العام التالي بعض الرسائل دون قصائد، وقليلًا من المال...

ثم انقطعت، وفقدنا كلَّ أثرٍ لك!

وقفتُ أمام خزانتي، وأخرجتُ مظروف الرسائل، وفضضتُ آخرَ رسالةٍ أرسلتَها لنا- وقد اهترأت لكثرة ما فضضتها وطويتُها- وقرأتها مجدَّدًا، وعيناي تغرقان في الدموع:

(حبيبتي، سامحيني لقلَّة المال الذي أرفقته مع الرسالة، يبدو أن (الفيزا) التي أُخرجتْ لي كانت مزوَّرة، فأنا الآن واقع في مشكلات عديدة، وأُلقِيَت عليَّ بعض التُّهم الخطيرة كَوني غريبًا عن البلد، ولعلاقاتٍ لم أحسب لها حسابًا مع بعض الغرباء..! ولكنَّني بريء فلا تقلقي، سأكونُ بخير، وأسوأ ما يمكن أن يحدث- كما أظن- هو أن يتمَّ ترحيلي، وحينها أعودُ إليكم! لا تخبري أمّي بشيء كي لا تقلق، وبلّغيها أنَّ عودتي باتت قريبة!)

وما زلتُ وعمَّتي ننتظر عودتك منذ ذلك الحين... ولم تعُد!

رباط

أمام باب دارها الطينيّ القديم كانت تجلس دائمًا، حيث وُضع لها كرسيٌّ خشبيٌّ قديمٌ متآكلة جوانبه، تتوكأ على عصاها المنحوتة من خشب صلب مزخرف، وهي ترقب الأطفال يلعبون، بوجه قمحيّ صافٍ، وملامح ودودة جميلة، وكأنَّما مسَّها الزمان بيد رفيقة ناعمة، فلم يترك عليها من أثره شيئًا يُذكر! ابتسامتها الآسرة ترتسم على شفتيها الورديتين لا تفارقهما، تزداد اتساعًا كلَّما أشار إليها أحد الصغار مناديًا:

– (جدتي انظري ها هنا..!)

فتدير عينيها السوداوين الواسعتين إليه، وهي تهزُّ رأسها بهدوء، وكلَّما مررتُ عليها عند المغيب وجدتُّها ترقب قرص الشمس الآخذ في التضاؤل بخشوع!

بتُّ أقفُ يوميًّا متوارية خلف باب دارنا الموارب، أتأمَّلها بهدوء في طقوسها اليومية... تأسرني مسحة الحزن التي تصبغ وجهها حين يتلوَّن الأفق حولها بألوان الشفق الحمراء، فتبدو لي وقد اصطبغت وجنتاها بألوان الغروب كشمسٍ أخرى تغيب عن الأرض بصمت!

تلفُّ شالها الحريري الأخضر الطويل على رأسها بعناية وذوق، وتُعدّله بين الحين والآخر، لتُعيد شعيرات بيضاء نافرة تمرَّدت عن سُلطة الشَّال، فتبعثرت مع هبَّات الرياح خارج أسوار حجابها، فلا تلبث أن تُعيدها إلى مكمنها الآمن مُحكِمَة لفَّ الشال!

عرفتها مذ كنتُ طفلة ألعب في الشارع، وجديلتاي الصغيرتان تتقافزان معي، أناديها ككل الفتيان في حارتنا (جدتي)، كانت الحَكَم والمستشار لنا كلَّما جَدَّ خلاف بيننا، أو تعارك بعضنا على لعبة ما! كما كانت كذلك لآبائنا! فلا نستغرب مرأى كرسيّ آخر نُصب بجانبها، وتربَّع عليه شاب أو فتاة، يستشيرها في أمر ما، أو رجل يحمل وليده الجديد بين يديه، يطلب بركتها بتسميته!..

ترسل إليها أمي ونسوة الحارة بعض الكعك المحلَّى، وكعك الشمار، أو خبز التنور الطازج مع أطفالهنَّ دومًا كشكر واحترام لتلك المرأة التي صارت عنوانًا لحارتنا بحكمتها ووقارها، (حارة الجدَّة "حليمة" !).

كنتُ أتلهَّف للجلوس معها، وسبر أغوار أسرارها، التي لم يشفِني فيها سؤال الأقارب، ثمَّ صرت لاحقًا أحتاج لفرصة أخلو فيها إليها، لأشكو لها، وأستشيرها في أمر خِطبتي!

ارتديتُ خماري وعباءتي، وأسرعت حاملة الكعك الساخن إلى الجدَّة، منتهزة فرصة غياب الصغار عن الدار، فتطوَّعت بأن أوصل إليها الكعك بنفسي...

وجدتها أمام دارها، في تلك اللحظة الساحرة، التي ينطفئ فيها وهجها عند الغروب!

ابتسمتْ لي بفرح، ودعتني لتناول الكعك معها كما كنتُ أرجو، فلم أتردد وصحبتها إلى داخل دارها الصغيرة، وجلسنا معًا على حصيرة مزخرفة في حوش الدار، نتأمَّل البدر وهو يتربَّع في عرش السماء، مُرسلًا حُزمة من خيوط ضوئه الفضية، ليمسح بها شيئًا من كآبة الليل الثقيل!

سألتني عن دراستي، وأمي، وإخوتي... وفترات طويلة من الصمت تتخلَّل حديثنا الهادئ!

ابتسامتها الودودة، ووجهها الوديع، شجَّعاني للحديث، فقلت:

- لقد خُطِبت!

ارتسمت معالم الفرح على ملامحها وهي تبارك لي خِطبتي، وتسألني:

- متى العُرس؟!

فهتفتُ باستنكار:

- ولكنَّ أبي لم يوافق بعد، ما زال ينتظر رأيي!

تأمَّلتني بهدوء، وأنا أغرق في دوَّامة أفكاري، وأتعثر بمشاعري المبعثرة، ثم سألتني:

- وما رأيك؟

همستُ وأنظاري تُعانق الأرض:

- ابن خالي أولى بي، هكذا يقولون لي، لهذا جئتُ أستشيرك!

تنهَّدتْ بعمق، ونظرت إليَّ نظرة متألمة، ثم قالت:

- لن أشير عليك بشيء، ولكنّي سأحكي لك حكايتي، حكايتي التي لا يعلمها في هذه الدنيا أحد غيري، فاستمعي إليَّ، ثم قرري، وأنت وحدك سيّدة قرارك!

أصغيتُ سمعي إليها، ووهبتها كلَّ انتباهي وتركيزي.

زفرتْ بقوَّة، وكأنَّما تطرد مع دفقات الأنفاس مشاعر كئيبة تتردَّد في صدرها، مُحدثة جَلَبَة وضوضاء تُرهق أعصابها، ثم قالت:

- (في اليوم الذي وُلدت فيه حملني عمّي مباركًا لأبي مولودته الأولى، وقال: هذه خطيبة ابني "حسن" !

وهكذا... بأربع كلمات قالها عمّي، ووافق عليها أبي، قُرّر مستقبلي، وأنا التي لم أعِ من الحياة شيئًا أكثر من الصُّراخ والبكاء، حنينًا- ربما- إلى رحم أمي الدافئ الذي كان يضمني!

وكبرتُ، والجميع يعلم أنّي مربوطة بكلمة شرف لابن عمّي الذي يكبرني بعامين "حسن"!

كنتُ كلَّما زارنا عمّي ألعب مع "حسن" لأنَّه الأقرب إلى سِنّي، وكلَّما رأتني أمي أو عمَّتي ألعب معه، قالتا:

- "حليمة" ل"حسن"!

وكأنَّما تُذكّر إحداهما الأخرى إذا ما نسيَتْ!

لم نكن نهتمُّ لهذه الكلمات في طفولتنا الأولى، ولكنَّنا صرنا بعد سنوات نفهم ونعي، فكان أكثر ما يزعجنا هو أن يرانا أحد الأهل نلعب معًا، فيرشقنا بتلك العبارة المقيتة التي تسبّب لنا الإحراج والضيق!

ومرَّت السنوات وكبرنا أكثر... فتحجَّبتُ، وانغمس هو في دنيا الشباب واهتماماتهم!

وعندما أكملتُ الثانوية، قرَّر أبي أن لا داعي لإكمال دراستي الجامعية؛ لأنني مخطوبة ولا يرغب عمّي بفتاة جامعيَّة لابنه. اقتنعتُ بما قاله أبي، وقبعتُ في منزلي أهتمُّ بشؤونه، وأعتني بنفسي وجمالي، وأنتظر..!

بينما التحق هو بالجامعة.. وبعد سنوات تخرَّج منها وسافر مغتربًا، ليصنع مستقبله ومستقبلي كما همست لي أمي!، فبقيتُ أنتظره بشوق، وأتتبع أخباره بصمت..!

وتقدَّم لي خلال هذه السنوات الكثير من الخُطَّاب، فرفضهم أبي جميعًا، قائلًا:

- البنت مربوطة لابن عمَّها!

ولم أهتم بالمتقدمين! فقد كنت- فقط - أنتظر الغائب، وأبني قصورًا من الأحلام والآمال بانتظار أن تتحقَّق معه..!

وعاد أخيرًا، بعد خمس سنوات من الغُربة المرَّة، وبدأتْ تصلني أخبار رغبة "حسن" بالزواج عن طريق قريباتي.. تهمس لي هذه، وتقرصني في خدي تلك، فأبتسم بخجل، وتُحلّق بيَّ الأحلام في سماوات بلا نهاية!...

وبدأت الهمهمات السّرية في منزلنا تكثر بالخفاء منّي.. وكثرت زيارات عمّي وعمَّتي وإغلاق الأبواب دوني.. وأنا أرقب ذلك بصمت وتوجّس.. ثم انقطعا تمامًا عن زيارتنا!

جاءتني أمي بعدها، وجلست معي، تُحادثني وتُمازحني على غير عادتها، فلمَّا آنست منّي هدوء النفس وانبساطها، صدمتني بالخبر الذي ألجمني:

- "حسن" خطب فتاة أخرى كانت زميلته في الجامعة!

كانت تلك الكلمات كطلقة رصاص باردة اقتحمت أغوار قلبي، ففتّته، وحطَّمت قصور الأحلام التي كنتُ أبنيها في خيالي، وبعثرت بقاياها بعنف!

طويتُ حزني وانكساري في قلبي، وقلت لأمي: لا بأس، في كل الأحوال أنا كنت مربوطة بكلام فقط، وليس خطوبة رسميَّة.

تنفَّستْ أمي الصُّعداء، وأحسستُ بمشاعر الرَّاحة والسعادة تغمرانها بعد كلامي هذا، ثم أخبرتْ أبي برأيي فسُرَّ أيضًا، وذهب لمراضاة أخيه بعد أن تخاصما وقررا التَّقاطع بسبب خذلانهم لنا.

لا أنسى هذا اليوم ما حييت!

انتظرت الليل بفارغ الصبر، فلمَّا غمر الكون ظلامه، وضمَّتني غرفتي وحدي، سكبتُ العبرات تلوَ العبرات على وسادتي! كنت أتساءل فقط لماذا تخلَّى عنِّي؟ وقد كنَّا أقرب اثنين لبعضهما في فترة الطفولة! كبرتُ أنا واستحال حبُّ الطُّفولة حبًّا حقيقيًّا، وكبر هو ونَسِيَني، وما كنتُ أظنُّه ينسى!

وبعد شهر تزوَّج، وحضر الجميع حفل زفافه، وتغيَّبت أنا بحجة المرض، كنت مريضة بجرح في القلب، يأبى أن يندمل!

ومرَّت السنوات..

ونسيَ أهلي ما حدث، وبقيتُ وحدي أجترُّ ذكريات الانتظار الطويل، وأحلام الشباب البالية..!

ثم تنهَّدتْ، وقالت:

- بنيَّتي، لقد بلغتُ السَّبعين من العمر، وصرت جدَّة لأطفال أولاد إخوتي، ولكن اعلمي أنّي لستُ حاقدة على "حسن"، ولم أحقد عليه لحظة واحدة، فقد اختار فتاة بيضاء، بينما كنت قمحيَّة اللَّون، كما قالت لي بعد ذلك أخته الكبرى!، وهو حرٌّ في اختيار شريكة حياته!

ولكنّي لم أستطع مسامحة أبي وعمّي على تقييدهما لحريَّتي أنا، ولم أكن حينها إلاَّ فتاة صغيرة ساذجة، لا تعرف حقوقها ومصلحتها!

ثم نظرتْ إليَّ نظرة مُثخنة بالمعاني، وهمستْ:

– أنتِ فتاة واعية، تعرفين مصلحتك!

تركتها وهي تدافع دمعات حارَّة، كادت تسيح على خدها... وعدتُ إلى منزلي.



نزيف الأوراق!

تناول رشفة صغيرة من عصير البرتقال، وأخذ نفسًا عميقًا، شدَّ يده على القلم، وبدأ يخط على الصفحة البيضاء أمامه:

((مساء شتوي مخيف، أصوات المدافع تنبعث من العدم، تخطف القلوب، وتصهرها في بوتقة الرعب والهلع! احتضنت الأم طفلتها الصغيرة: لا تخافي يا حبيبتي، فأنتِ بين يديّ!

سألتها الطفلة:

- لِمَ لمْ يعد أبي؟

ابتسمت قائلة:

- سيعود في الصباح.

تداخلت في عقلها الأفكار... هل سيعود؟ خرج منذ الظهيرة لشراء أرغفة الخبز، تأخر كثيرًا، وقد قارب المساء على الانتهاء!

لكنَّ المخابز جميعها مغلقة، مخبز واحد فقط في طرف المدينة يبيع الخبز، لا بد وأنَّه قد غرق وسط طوابير البشر الباحثة عن لقمة تُشبع بها الأفواه الجائعة المنتظرة في المنازل!

أكوام الأحجار في الطريق تعيق الحركة، تتناثر المنازل تحت القصف وكأنها قصور من تراب بناها طفل صغير وهو يلعب على شاطئ البحر، فغمرتها موجة قادمة مع المدّ وسوَّتها بالأرض! يُذكّرها البحر برحلة العائلة في الصيف الماضي! مذاق عصير الليمون ما زال

في فمها، قصور الرمل التي بناها زوجها صمدت حتى المساء، قبل أن تغمرها المياه وتسوّيها بالأرض، أصوات غناء أطفال إخوتها في السيَّارة تصدح في أذنها بألحانها الشجيَّة..!

صنعت من جسدها ترسًا تحمي به الطفلة النائمة في أحضانها من أي خطر مجهول...

انقضى ليل آخر طويل، وأشرقت الشمس، واختفت بشروقها أصوات الانفجارات، وكأنَّها تتوارى بنورها الباهت خجلًا من أنوار الصباح المشرقة!

بدأت الحياة تَدُبُّ في المدينة المدمرة.. أصوات أبواق سيارات الإسعاف تدوي في الأرجاء...

الشباب في الشوارع يرفعون مخلَّفات عنف همجي صبَّ جامَّ غضبه في المساء، يبحثون عن حياة لعلها دُفنت تحت الركام!

منزل فقد طابقه الثاني، وآخر اختفى تحت أكوام الأحجار!، صرخ أحدهم:

- وجدتُ شيئًا!

أسرع الجميع.. أزالوا الحجارة.. نفضوا التراب.. سحبوا البطانية.. ووقف الجميع بذهول يتأمَّلون ما يرون..! هو وحده ألقى الأرغفة الثلاثة من يده، وجثا على ركبتيه، وأمام عينيه، فوق البطانيَّة: جسدان رقيقان يسبحان في بركة دماء!))

وضع القلم، أعاد القراءة وهو يرتشف ما تبقَّى من عصير البرتقال.. هزَّ رأسه راضيًا بما أملاهُ خاطرهُ على قلمهِ فسطَّرتهُ يداه.

طرق باب المكتب وسلَّمها للمدير، دقائق مضت قبل أن يرفع المدير عينيه عن الأوراق، ويعيدها إليه قائلًا:

– (لا تصلح للنشر، حاول مرَّة أخرى في موضوع آخر بعيدًا عن الحروب والمآسي)

عاد إلى حيث كان جالسًا، استلم قلمه، حكَّ رأسهُ بناصيةِ القلمِ قليلًا، ثم شرع يكتب:

((وقف أمام المرآة يُعدّل ملابسه، ربطة عنقه الحمراء تخنقه، تكاد تكتم أنفاسه، لكن لا مفرَّ له من لبسها حتى تكتمل أناقته! تفقَّد ملفَّه: (شهادة الثانوية، شهادة الدراسة الجامعية، شهادة إتقان اللغة الإنجليزية، وشهادة الرخصة الدولية لقيادة الحاسوب، توصيات من إدارات المعاهد التي درس فيها، وشهادة حسن سيرة وسلوك من شيخ منطقتهم).

هتف بمرح:

– الأمور مبشّرة بالخير!

التقت عيناه بعيني الوالدة الواقفة تتأمله عند باب الغرفة، فقال مازحًا:

– لا تقلقي يا أماه، أعدك بأن يكسو عظمك اللحم قريبًا، حين أستلم الوظيفة، وستزورين الطبيب تشكين السُّمنة!

رفعت يديها إلى السماء تُمطره بالدعوات..

وصل إلى الشركة..

للمرَّة الرابعة يجلس على كرسيّ الانتظار أمام مكتب رئيس الشركة، لم يشفع له تقديره الممتاز في نيل الوظيفة في المرَّات الثلاث السابقة..!

في المرة الأولى نظر إليه رئيس الشركة شزرًا، وقال:

– ما قيمة شهاداتك من دون إتقان أي لغة أخرى؟، ما زال أمامك درب طويل!

يومها لم يعد إلى منزله بل إلى معهد اللغات الأجنبية في مدينته؛ ليُسجّل اسمه طالبًا فيه، ثم عاد إلى أمه، راجيًا إيَّاها أن تقتصد في المصاريف؛ لتوفير رسوم دراسته:

– خبز وفول يكفي الآن، وغدًا سنأكل ما نشاء عندما أستلم الوظيفة.

ومضت شهور الدراسة..

وعاد إلى الشركة ثانية بشهادة امتياز أخرى حشا بها ملفَّه، قلَّب رئيس الشركة الملفَّ، ووضعه جانبًا، ثم سأله:

– هل تُجيد استعمال الحاسوب؟

لم يستسلم! وعاد ثانية لينضمَّ إلى صفوف الدارسين في معهد الحاسوب..

– لا ضير يا أمي بشهرين آخرين نحياهما على الخبز والفول.. وغدًا أُعوّضك عن كل شيء.

في المرة الثالثة أتى حاملًا ملفَّه الكبير، تتقدَّم أوراقه شهادة الرُّخصة الدولية في قيادة الحاسوب، ولكن لم يُسمح له بمقابلة رئيس الشركة، وقالت له السكرتيرة يومها:

– لقد كثر المخادعون واللصوص، لذا أضفنا شرطًا جديدًا لمن يتقدَّم للوظيفة بأن يُحضر معه توصية من مكان دراسته، وشهادة حسن سيرة وسلوك من شيخ منطقته، فهل أحضرتهما معك؟

عاد أدراجه يسعى من مكان لآخر، وقضى أسبوعًا في رحلةٍ بين المعاهد، حتى حصل على التوصيات، وألحقها بشهادة حسن السيرة والسلوك من شيخ المنطقة.

وها هو ذا اليوم يؤمِّل نفسه: (ملفّي الحافل بالشهادات لن يخذلني، تقديرات الامتياز تُزيّن واجهة كل شهاداتي! الخطوة الأولى موظَّف هنا، والخطوة التالية أن أترقَّى لأجلس مكان الرئيس!)

أدخلته السكرتيرة إلى مكتب رئيس الشركة... ملامحه الهادئة أشعرته بالاطمئنان والرضا (لن يذهب تعبي وتعبك يا أمي سدى!)

تسمَّرت عيناه على شفتي الرئيس بانتظار ما ينفرج عنهما من كلمات وحروف..!

قلَّبَ الملف بهدوء، وأخيرًا رفع رأسه إليه، مطَّ شفتيه وأشعل سيجارةً نفث دُخَّانها السام ملوّثًا أجواء الغرفة، ثم قال:

– ليس لديك أيُّ خبرة سابقة، لا يمكن أن نعتمد على شخص لم يُجرّب ميدان العمل. عندما تكتسب الخبرة الكافية، تعال لأوظفك!

جرَّ نفسه إلى منزله هذه المرة بفؤاد جريح، وقلب محطَّم! استقبلته أمه أمام الباب، لم يستطع أن يرفع رأسه إلى وجهها، فدفنه في أحضانها، ودموع الخيبة تسيل على وجنتيه بغزارة كطفل صغير فقد لعبته المفضلة!

ربتت على رأسه بحنان، وقالت:

– لا بأس عليك يا ولدي، لقد اعتدتُ على الخبز والفول!))

وضع القلم يتأملها، ويصلح ما وقع فيه من أخطاء إملائية... هزَّ رأسه– للمرة الثانية– راضيًا بما سطَّر وروى.

عاد إلى المدير وسلَّمها إليه. دقائق تمرُّ وكأنَّها ساعات! خُيِّل إليه أن حدقتي عيني المدير تضيقان رغم سماكة النَّظارة التي يرتديها!

تنهَّد بعمق ملقيًا الأوراق من يده، ثم شبك كفَّيهِ أمامه متكئًا بمرفقيه على سطح المكتب، قائلًا:

– (للأسف، ما زالت لا تصلح للنشر! لديك أسلوب رائع، لكنَّك تفتقد الفكرة، سأُعطيك نصيحة قيّمة إذا أردتَ أن تحترف الأدب، أترك الكآبة جانبًا، وانظر إلى ما حولك من الطبيعة والحياة!)

عاد إلى مكانه مجددًا، وأخذ أوراقًا جديدة من السكرتيرة، فقد استنفد كل أوراقه التي أخذها سابقًا..

استمرَّ يحكُّ رأسه بالقلم عدَّة دقائق.. (أين أجد فكرة لأكتب حولها؟)

جال بناظريه فيما حوله، الساعة الرابعة عصرًا، السكرتيرة على مكتبها منشغلة بترتيب بعض الأوراق والملفَّات، بجانبه فتى منهمك في الكتابة منذ ساعة، أكمل قصتيه السابقتين وما زال هو يكتب واحدة!

اختلس نظرة لكلماته علَّها تلهمه شيئًا، أو يقتبس منها فكرة:

(جلسا تحت ظل شجرة عنب كبيرة يتبادلان عبارات لطيفة... كان الجو ممطرًا وجميلًا)

تساءل في نفسه:

– أين توجد مثل هذه الشجرة الأسطورية؟

الجو الممطر يذكّره بالدموع، وقد ذرف كثيرًا منها في جنازة أمه..!

لم يجد في ذلك ما يكتبه.. عاد يختلس النظر إلى العبارات الأخرى:

(سيطر حبها على قلبه حتى تملَّكه.. قبلة بريئة.. أجمل أيام الدراسة الجامعية)

لم يفهم الرابط بين عباراته..!

أيام الدراسة الجامعية تذكّره بالعمل المرهق الذي اضطر إليه لتوفير مصاريف الدراسة، والقبلة البريئة تعصف برياح الأحزان في قلبه، وتُعيد إليه ملامح طفوليَّة اختفت من عالمه قبل عدة سنوات، أما الحب فكلمة دفنها يوم دفن عائلته وغادر وطنه!

لم يُعجبه نصُّه الرومانسي الخيالي، فعاد إلى أوراقه.. يُذكّره بياضها بالسيدة (نهاد) مديرة ملجأ الأيتام، كانت طويلة القامة، بملامح هادئة، ووجه مشرق من شدة البياض، لكنَّه لا يجد في ذلك أيضًا ما يكتبه!

وقف أمام النافذة يتأمل السماء، باحثًا عن ما يمكن أن يكتب حوله، أستغرق وقتًا طويلًا قبل أن يجد الفكرة، فأسرع إلى أوراقه يكتب:

((السماء صافية! أسراب من الطّيور المهاجرة تعود إلى أعشاشها التي هجرتها في مواسم الشتاء، لتبحث عن الدفء والأمان..

طائرٌ صغير في آخر السرب عجز عن اللحاق بأصحابه، خانه جناحاه الصغيران، رفرف بقوَّة لساعات قبل أن تخور قواه، فيتوقف ليستريح قليلًا على إحدى الأشجار!

ولكن ولشدَّة تعبه نام قليلًا، ولمّا استيقظ لم يجد أثرًا لسربه الطائر، أرهف السمع علَّه يسمع شيئًا من زقزقتها دون فائدة، فقد ابتعدت كثيرًا، ولا يعرف إلى أين اتجهت!

سمعت بومة عمياء تسكن ثُقبًا في الشجرة التي يقف عليها، صوت زقزقته الحزينة، فخرجت من مكانها متسائلة:

- مَن هذا الذي يبكي على شجرتي؟

أجابها الطائر الصغير:

- إنه أنا.. طائر صغير غادر موطنه، ولم يستطِع العودة إليه، جناحاي الصغيران لم يمكّناني من الرَّفرفة مع رفاق سربي، فتركوني ورحلوا!

رقَّت البومة لحاله وتألمت كثيرًا، فقالت له:

- يُمكنك البقاء عندي، فأنا كما ترى بومة عمياء، فإن ساعدتني على إحضار طعامي سآويك في عُشي، والقرار بين يديك، فماذا ترى؟

وافق الطائرُ البومةَ على اقتراحها، وعاش معها أيَّامًا وشهورًا كثيرة بدفء وأمان، ولكنَّه مع ذلك كان يشعر بفراغ في قلبه يُؤرّقه، ويصبغ حياته بالحزن والكآبة، لا يعرف كنهه، ولا يجد للخلاص منه سبيلًا..!

أخبر البومة يومًا عن ما يشعر به، فقالت:

- (إنَّه الحنين!)

شعورٌ فِطريٌّ - مغروس في القلوب - بالشوق للأحباب رفقةً وأرضًا، زمانًا ومكانًا، تُغذّيه ذكريات محفورة في سويداء القلوب.

- ولكني أحبك، وأحب هذه الغابة!

- أحببتني لأنّي ساعدتك عندما احتجتَ للمساعدة، وأحببتَ هذه الغابة لأنَّها صارت مأواك عندما فقدت المأوى، ولو طردتُكَ من هنا لكرهتني، وكرهتَ الغابة، ولما أردتَ العودة هنا مرَّة أخرى!، أمَّا أرضك التي نشأت فيها، ورفاقك الذين تربيت بينهم، فسيظل حنينك

إليهم مهما حدث، ورغم كل الظروف؛ لأنَّ حبك لهم نابع من فطرتك، وحبك لنا نابع من حاجتك، وشتَّان بين الحبين!

- وماذا أفعل لأملأ الفراغ في قلبي؟

- عليك أن تراقب السماء في الفجر وعند المساء، فإذا شعرت فجأةً بامتلاءِ الفراغ في قلبك طِرْ، ولا تنظر أبدًا للوراء!

استمرَّ الطائر بمراقبة السماء، دون أن يفهم مغزى ذلك وجدواه، وفي فجر أحد الأيام سمع زقزقة جميلة، ورأى سِربًا طائرًا في السماء، شعر بقلبه يتقافز في صدره، وبرغبة عارمة بالتحليق، رفرف بجناحيه، شدَّ همَّتهُ، وطار، شعر بأنَّ قلبه ممتلئ بالسعادة والسرور، وأدرك أخيرًا ما كانت تعنيه البومة!.

أقترب كثيرًا من السرب الطائر، وحلَّق بين رفاقه من جديد، لكنَّه في غمرة سعادته، نسيَ ما قالت له البومة، فحانت منه التفاتة للوراء، فرأى البومة العمياء تقف على الغصن، تنعق منادية عليه، وتتحسَّس بأحد جناحيها في الهواء باحثة عنه!

أبطأ قليلًا في طيرانه وظلَّ يراقبها، تردَّد في الاختيار بين المضي والعودة.. اقتربت من طرف الغصن، تكاد أن تقع منه، حزم أمره أخيرًا.. التفَّ سريعًا إلى الوراء وعاد! اختار أن يبقى جسدهُ هنا وقلبهُ هناك!))

طوى الورقة.. ثم سلَّمها للسكرتيرة راجيًا إياها أن تُسلّمها نيابة عنه؛ فقد خجل من الدخول إليه وذاك الفتى عنده يُسلّمه قصَّته!

دقائق مضت قبل أن تعود السكرتيرة من مكتب المدير بقصَّته ونموذج قصة أخرى، قائلة له:

- إنَّ المدير يطلب منك أن تقرأ هذا النص، وتكتب مثله إن أردت أن تُصبحَ أديبًا!

تناول نموذج القصَّة ليقرأها.. لكنَّها لم تكن إلا النصَّ الرومانسي الخيالي، الذي كتبه الفتى الذي كان بجواره، ولم يعجبه!

أخذ ورقة بيضاء، وكتب عليها سطرًا واحدًا، ثم طواها وأعطاها السكرتيرة لتسلّمها للمدير... وغادر المكان!

فضَّ المدير الورقة، وقرأ:

(إذا كان هذا هو ما يعنيه الأدب.. فأنا أُعلن - بكلّ فخر - أنَّي قليلُ الأدب!).



انتظار

إذا كانت عجلة الزَّمن تمضي سريعًا، فإنَّ دقائق الانتظار هي أبطأ ما فيها!

كلُّ الوجوه في صالة الانتظار أمام غرفة الإنعاش كالحة، تغشَّاها سحائب الهموم، وترتسم على صفحاتها صور ملطَّخة لأحزانها وعذاباتها بأبشع الألوان القاتمة!، تجترُّ بصمتٍ ما تبقى لها من كل شيء، والموت باسط جناحيه حولنا، وقلوبنا مطويَّات بيمينه!

انتزعتني وأخي سطوة الموت من حيث انعطفت بكلّ واحد منَّا دروب الحياة، وتركته يعاركها وتعاركه.. لنقبع هنا، نُراقب عقرب الثواني في مسيرته البطيئة نحو الفناء..! وهل حياتنا إلَّا دقائق وثوانٍ يُفني بعضها بعضًا، حتَّى تفنى جميعًا وينتهي كلُّ شيء؟!

أُوصدت الأبواب أمامي: أبواب غرفته، وأبواب الحياة!

وأمام الباب الموصد كنتُ أذرع الصالة جيئة وذهابًا، وأذرع في تلك الأمتار القليلة عمري كلَّه، منذ اللَّحظة التي استقبلتني فيها الحياة صارخًا، إلى هذه اللَّحظة التي يبتلعني فيها شبح الصمت...!

أقطعُ أربعة أمتار وأربعين عامًا في ثوانٍ معدودة! أُطلُّ فيها من فوق تلَّة العمر، أُبصر مواقف السنين الماضية من كلّ الجهات، أُبصرها ذات اليمين وذات الشمال، وقد صارت أمامي منبسطة واضحة، كسهل مفتوح ممتد عبر مرافئ الزمن...!

أطوف من هناك بأركان الماضي، أُلملم ركام الذكريات، وأنثرها أمامي... مذاق الحلوى في فمي.. حرارة قبلاته على جبيني.. ودفء أحضانه عندما يحتويني!

أغوص في دوَّامة الذكرى حدَّ الوجع، وتشتعل نيرانها في روحي، تحرق أعصابي ومشاعري، تكويني، وتدمرني، وتتركني كذكرياتي منهكًا مبعثرًا!

تمتدُّ إليَّ يد أخي، تنتزعني من دوَّامة الذكريات، وتُنقذ روحي من الغرق في تفاصيلها..

- اجلس!

قرفصتُ بجانبه، أتأمَّله ويتأمَّلني.. كأنَّني لا أعرفه، وكأنَّه لا يعرفني! متى التقينا آخر مرة؟! كم سنة مرَّت على آخر حديث جمعنا؟! لستُ أدري!

قال:

- أتذكر عندما كنَّا صغارًا، ننتظر بشوق أمام باب شُقتنا، ونراقب عقارب السَّاعة، فتقول:

- السَّاعة معطَّلة، إنَّها لا تتحرك؟!

فأقول لك:

- انظر جيدًا! أترى ذاك العقرب الرفيع؟ إنَّه يتحرَّك!

فتُدقِّقُ النَّظر في عقرب الثواني لحظات معدودة، ثم تصرخ مستنكرًا:

- لقد وصل العقرب الرفيع إلى الوسط، لماذا لم يصل؟!

فأضحك، وأقول لك:

- راقب العقرب السمين القصير، عندما يصل إلى الوسط سيصل هو!

إننا نفعل الشيء نفسه الآن!، نُراقب السَّاعة والباب!، لم يختلف إلَّا الأمل الذي ننتظره!

أطرقتُ برأسي، ومسحتُ قطرات الدَّمع الفارَّة من سُلطان رجولتي!

تمرُّ أرواحنا على شفرة الموت الحادَّة، والدقائق لا تمر..! تُؤلمني طقوس الانتظار والترقب، تنتهكني، وتُنهكني! ومع كلّ دقيقة تمرُّ تتصدَّع جدران روحي وتتشقَّق، ومن تلك الشقوقِ تتسرَّبُ قطرات اليأس، لتغمر بقايا الأمل في نفسي!

وأنتظر، وجميع كلماتي معي تنتظر!، الكلمات التي حشدتُّها لأقدّمها قربان اعتذار وأسف على سنوات الهجر والغفلة! تائهٌ كنتُ.. كقطرة من ماء اغترت بنفسها، ولم تُدرك أنَّ قيمة حياتها في منبعها، فاستقرَّت على صخرة، هاجرة النَّبع الذي نشأت فيه، فتبخَّرت وانتهت!

كنتُ قطرة تائهة، وكان أبي منبعي! منحني من عرقه وسهره ثمن الحياة التي أردتُّ.. ولم أفهم!

الآن وقد رفرف شبح الموت على رؤوسنا.. فهمت وتذكَّرت! الآن وقد صرتُ أبًا.. أدركت وعرفت!

أرفع دعواتٍ كغيث منهمر من الأرض إلى السماء، أتلو الآيات في قلبي، وابتهل إلى ربي أن يشفيه لأُعوّضه عمَّا فات من قسوتي

وبُعدي!، أتسلَّلُ إلى ركن الصَّالة بصمت؛ لأقف وأُصلي، أركع وأسجد بلا عدد..!

يقف أخي خلفي، يُكبّر معي، ويأتمُّ بي، نُقيم صلاة تتلوها صلاة، نطرح على أعتاب الرَّحمة الإلهية بقلوبٍ مُنكسرة نادِمة، قسَّتها نعومة الحياة، وليَّنتها قسوة الموت...!

وبانتظار أن يُفتح الباب، ويُشرق وجه أبينا الباسم في حياتنا من جديد، ما زلنا ننتظر...

وننتظر...!

على حافّة الحياة

يطوي الليل صفحته رويدًا رويدًا، ليتسلَّل نور الصباح ببطء من خلف ركام الظلام الثقيل، كما تطوي الأيام عمري، وتلقيه جانبًا كورقة من سجل قديم، سُطِّرت عليه ديون الحياة حتَّى غشي السَّواد بياضها، فطُمست الأرقام والحروف، فلم يبقَ شيء ليُكتب طالما أنا أسيرٌ بين جدران اليأس والوحدة!.

أبسط راحة يدي في ظلمات بعضها فوق بعض، وأقبض الوهم أتلهَّى به عن الحقيقة! فروحي منهكة محطَّمة، تسير الهوينى في مستقبل أشدُّ إنهاكًا منها! تكاد تتلاشى في غيابة السجن ووحشته، إلا من ومضات من نور السَّكينة تتغشَّاها أحيانًا حينما تذوب في لُجَّة الدعاء والاستغفار!

خمسة أعوام انسلخت من عمري في زنزانة باردة وصامتة.. أستحضر في وحدتها ذكرياتي جميعها.. وكلَّما أغمضت عينيّ غمرني وجه أمي الباسم، وناداني صدى صوتها..!

أتذكَّرها وهي نائمة بجانبي على فراشها البالي، تُغطّيها أسمالٌ بالية خَلِقَة، علَّها تستر معالم جذعها اليابس، فتُعجِزها رُقعها ومُزقها عن فعل ذلك! فتبدو كبقايا إنسانٍ كانت تزيّنه فيما مضى مِسحة من جمال، طواها الزمن فيما طوى!

كنتُ أجد سَلوتي وأُنسِي حينما أتأمَّل ملامحها الهادئة، وقد خطَّ الشيب تفاصيله الغائرة على وجهها ويديها المعروقتين، وأُنصتُ

بخشوع لنغمة أنفاسها المتعبة، وهي تُكافح في زفيرها وشهيقها لتُبقي في هذا الجسد -الذي تعاضد على هدِّه الفقر والمرض- رمقًا من حياة!

عانقت دفقات الضوء المتسرّبة من كوَّة الجدار أرض زنزانتي، فقمتُ أنفض عن جفوني معالم الأرق والسهر الطويل، لأستقبل يومي الجديد والأخير!

المآذن تصدح بالأذان، تجمعُ المصلّين في صعيد واحد، وأنا وحدي أُصلّي في مترين خاليين إلَّا منّي، ومن فراش قديم متَّسخ، وبطَّانية أشدّ قدمًا واتساخًا منه- أشدُّها على جسدي حينما أنام؛ لأتدثَّر بها من لفحات هواء الليل الباردة- وسطل معدني لقضاء الحاجَة!

أنهيتُ صلاتي وجلستُ على طرف الفراش أنتظر الدقائق أن تمر ومعها آخر أنفاسي على هذه الحياة...!

أسراب الطيور تصدح بالغِناء في سماء المدينة، تنساب أنغامها في أذني كمعزوفة خالدة للحياة!

أُنصت إليها بخشوع... تذكّرني لحظاتي الأخيرة هنا، بأيَّامي الأخيرة خارج حدود هذا المكان..

تناولتُ القلم والأوراق التي طلبتها في الليلة الماضية كرغبة أخيرة مقدَّسة، فأُجيب طلبي، وأغمضت عينيَّ وشريط الذّكريات يمرُّ أمامي... ثم فتحتهما وشرعتُ أُسطّر على الورق خواطر لحظاتي الأخيرة، وقصَّة الصبيّ الذي كنتُه:

(في يوم بارد وجاف، وقف الصبي ذو الخمسة عشر ربيعًا أمام أحد الأسواق، حاملًا (الخرقة) التي اقتطعتها له أمُّه من غطاء شعرها الأخضر،

وبجانبه قصعة سمن صدئة التقطها من إحدى المزابل، نظَّفها، ثم ملأها بالماء من صنبور المسجد، ليُباشر عمله الجديد في غسيل السيارات!

الحياة تدبُّ في المدينة في لحظات البكور هذه، أصوات الباعة ترتفع وتختلط وتتداخل، وهو يرقبُ الجميع برهبةِ طفلٍ ترك مقعده في المدرسة خاليًا لأوَّل مرة؛ ليلحق بركب العمل!

سيارة سوداء تتوقَّف أمام السوق، أسرع يغمس خرقته بالماء، ويستأذن الرجل المترجّل أن يمسح زجاجها، فيتجاهله ويدخل السوق!

عَصَرَ خرقته.. لملمَ أكمامه.. وشرع يمسح الزُّجاج بهمَّة ونشاط.. وبين فينة وأخرى، يضع الخرقة ليفرك يديه المتجمدتين، وينفخ فيهما، علَّ أنفاسه الحارة تبعث فيهما شيئًا من الدفء والحياة!

عاد الرجل إلى سيارته، ويداه محمَّلتان بالأكياس المنتفخة، مدَّ الصبي يده اليمنى يريه الخرقة الملوَّثة بالتراب، وبيده اليسرى يشير للزجاج النظيف دليلًا على عمله.. شغَّل الرجل سيارته وكاد يصدمه، فابتعد مسرعًا عن طريقها.. راقبها وهي تنهب الشارع مخلّفة أملًا ضائعًا، وسحابةً من دخان، ومذلَّة لم يعهدها من قبل!

اعتصر بطنه بيديه؛ ليُسكت قرقرة معدته الخاوية! ورائحة الشواء المنبعثة من المطاعم المجاورة تبطش ببقايا الصبر الذي يعتصم به دون رحمة! جرجر أقدامه إلى المسجد؛ يعبُّ الماء من ثلاجة الوقف؛ ليُسكت قرقرتها!

يصرخ به رجل همَّ بمسح سيارته أمام المسجد:

- (لا تلمسها يا ولد! اذهب للمدرسة لتتعلم كلمات تنفعك، بدلًا من التسكُّع في الشَّوارع!)

كوت الكلمات فؤاد الصبي الجريح، وأيقظت ذكريات جاهد أشهرًا ليطمسها في فجوات قلبه.. فهمس بقهر:

- (ولكنَّني يا سيدي كنتُ حتَّى العام الماضي طالبًا فيها!)

لم يسمعه الرجل، وداس بنزين سيارته، فطارت به تنهش الشَّارع نهشًا! شيَّعها بأنظاره حتَّى ابتلعها الطريق!

تذكَّر والده وهو يعده بالدَّرَّاجة التي طالما تمنَّاها إن هو حاز على المركز الأوَّل في امتحان الصف التاسع..! وتذكَّر مدرّسة الرياضيات وهي تُثني عليه أمام جميع التلاميذ إثر حلّه لمسألة صعبة أعجزت زملاءه وتتوقَّع له مستقبلًا مشرقًا!

وفي دهاليز نفسه المنكسرة طاف سؤال حائر:

- تُرى ماذا كان والدي سيقول إن رآني مجندلًا خلف القضبان؟ وما ظنُّ مدرستي بي الآن؟ وهل علمت بحالي والمستقبل الذي صرت إليه؟

يوم ثقيل مرَّ عليه.. جرجر فيه أقدامه من شارع إلى آخر حتى كسب بعض النقود تكفيه لوجبة واحدة مع أمه! ليستلقي بعدها على فراشه، ويطويه ليل آخر طويل، يراود فيه النَّوم عن نفسه ويأبى عليه، وقد أسلمته نفسه رهينة للهم والقلق، يتسلَّط عليه الأول ليلًا حين يأوي إلى فراشه، ويجثم الثاني على قلبه طوال النَّهار!

وكذلك كانت أيامه.. يشبه بعضها بعضًا! ولا يتغير فيها إلا جسده الذي يزداد نحولًا، وضمورًا، وطولًا مع الأيام، ومشاعره التي تبلَّدت مع قسوة الشارع أكثر وأكثر!)

رفعتُ القلم عن الورقة حين وصلت بي ذاكرتي إلى هذه اللحظة، وأسلمتني للحنين الذي يغمر فجوات قلبي... أحنُّ إلى الأيام التي كنتُ فيها حرًّا طليقًا، كطير محلّق في الفضاء!، وإن اعتصر الجوع بطني، ولسعتني موجات الهواء الباردة، وانصبَّ عليَّ سيل من الإهانات والشتائم القاذعة..!

تناهى إلى مسامعي وقع أقدام تقترب ببطء من زنزانتي...

لعنتُ الفقر، والجوع، وطيش الشباب، الذي أوقعني في مصيبتي هذه، وطويت أوراقي والقلم ووضعتها تحت الفراش... لقد حان الوقت!

رفعتُ رأسي للسماء، وهتفتُ من أعماق قلبي:

- (يا رب!)..

لم أزد عليها!

فتح الحارسان الزنزانة وأمراني بالخروج.. فسِرتُ بينهما مستسلمًا صامتًا إلَّا من حركة خفيفة تختلج في شفتيَّ اللتين لم تفترا عن الدعاء والاستغفار تنفيذًا لوصيَّة أمي! حينما كنت أعود إليها مهمومًا، حزينًا، لاعنًا ظروف عملي وقِلَّة حيلتي... فتمسح بيدها على جبيني، وتتمتم:

- (ربنا يحميك ويرزقك من حيث لا تحتسب يا ولدي)

ثم تنحني على قدمَيَّ الجافتين، تدلكهما بيديها المتعبة، وتوصيني بالاستغفار:

- (حرّك لسانك بالاستغفار)، (استغفر الله يا ولدي ليسهل لك دربك).

تذكَّرت حالها في زيارتها الأخيرة لي، فطفرت منّي دمعات يائسة!

وقفتُ حينها خلف القضبان الفاصلة منكِسًا رأسي، فمدَّت يدها، رفعت رأسي، ومسحت على جبيني كما كانت تفعل دائمًا! وأمطرتني بالدَّعوات:

- (ربنا يفك أسرك قريبًا يا ولدي)

مؤمنة كانت ولا زالت، لم تهزمها يومًا الظروف الصعبة، ولا توالي النكبات!

لم أخبرها أنَّ حكمًا بالإعدام قد صدر في حقّي أخيرًا، وسيُنفَّذ بعد أيام.

لم أرد حينها أن أقطع حبل الأمل الذي يعتصم به قلبها المؤمن!.

دقائق معدودة، لم يرتوِ فيها قلبي من رؤيتها، ولم تشبع أذناي من سماع نغمة صوتها الحنون.. أنهاها الحارس صارخًا بعبارته المقيتة:

- (انتهى وقت الزيارة)!

أوصيت الجارة التي رافقتها أن تعتني بها، وغبت مع الحارس في الممر، تُشّيعني أنظارها الملتاعة.. ودموعها الحارة.. ودعواتها المنهمرة عليّ كالمطر!

ألهج بالاستغفار أكثر وأنا أواجه مصيري المحتوم.. أغمضت عيني حين غمرتني فجأة أشعَّة شمس الضحى السَّاطعة في الميدان، وقد اعتادت عيناي على العتمة والضوء الخافت المتسرّب من كُوَّة الزنزانة!

أغلق الحارس عينيَّ برباط أسود، بعد أن شدَّ وثاق يديَّ خلف ظهري وأحكمه. وفي غاشية الظَّلام الذي انسكب على روحي وقلبي

قبل عينيَّ، رأيت يومي الأسود الذي أظلمت بسببه حياتي!، وبين يديَّ مفاتيح السيارة التي توَسَّم فيَّ مالكها خيرًا ووثق بي، فأوصاني أن أنظفها من الداخل أيضًا، ليجزل لي العطاء فيما بعد، وتركها في عهدتي، ودخل السوق لدقائق.

وزميلي البائع المتجوّل بجانبي يُغريني بتشغيلها والهرب بها، لنبيعها ونتقاسم ثمنها، ونودّع معًا حياة الشقاء وقسوة الشارع! نفخ بكلماته في أذني، وزيَّن لي الأمر حتَّى اقتنعت طمعًا في حياة أفضل، وربما انتقامًا من كل رجل شتمني، أو أهانني، أو رفض أن ينفحني شيئًا من المال، بعد أن تقرَّحت يداي وأنا أمسح زجاج سيارته بإخلاص وكدٍّ!..

جلستُ على مقعد السائق، وجلس زميلي بجواري يشحذ عزمي ويشجّعني؛ كيلا تخور همتي وأتراجع!. أدرت المفتاح وقلبي ينتفض بين أضلاعي خوفًا وقلقًا، حتى هممت في اللَّحظة الأخيرة أن أنزع المفاتيح وأتراجع، لولا أن اشتغلت السيارة فجأة، وبقوَّة اندفعت للأمام.. ودوى الارتطام!

أحسستُ بهواء المدينة البارد يصفع وجهي، فأخذت استنشق الهواء بعمق وبطء، أعبُّ من نسمات الحياة آخر نفس! وأدعو الله في سرّي أن يسامحني، فيغفر زلتي، ويربط على قلب أمي.

الدقائق تمرُّ وكأنَّها نِصَال حادَّة تقتحم أغوار قلبي، وتُمزّق بقايا الصبر التي أعتصم به! وأنا ما زلت واقفًا في وسط الميدان، أنتظر الرَّصاصة التي ستُنهي معاناتي، وتضع حدًّا لأنين روحي النادمة وعذابها.. ولكنَّها تأخرت!

هل الوقت يمرُّ ببطء وتثاقل؟ أم يُخيَّل إليَّ ذلك؟

وإذا بيد تفتح وثاقي، وأخرى تُزيح الرّباط عن عينيَّ! فانزاح الظلام فجأة من حولي، وانسكب النور على وجهي، ووجدت أمي أمامي تُعانقني وتبكي، وتلثم وجهي ويديَّ، وأنا في ذهولٍ عما يجري!

لم أفهم شيئًا مما حدث إلَّا حين مدَّ إليَّ أحد الحرَّاس يدهُ مباركًا نجاتي قائلًا:

– (لقد رقَّ والد الطفل القتيل لدعوات أمك ودموعها، فعفا عنك في آخر لحظة! لقد مُنِحتَ عُمرًا جديدًا!)

سارة

هبَّت نسمات هواء بحريَّة باردة، حركت في هبوبها أمواج البحر، كما بعثرت خصلات شعر الفتيات الصَّغيرات اللاتي كنَّ يلعبن على الشاطئ بالرمال...كان الشاطئ ممتلئًا بالزُّوار!

تجلس النّسوة على البُسُط الشعبيَّة، ممسكاتٍ جلابيبهن بأيديهن لكيلا تطيّرها الرياح، وأمام أنظارهنَّ يلعب الأطفال..

يتقاذف مجموعة من الصّبية كرة بلاستيكيَّة، وكلَّما طيَّرتها الرياح إلى الماء ركض أحدهم خلفها، بينما اختارت مجموعة أخرى من الأطفال أن تبقى وسط أحضان البحر، غامرة أجسادها الصغيرة فيه، تستمتع ببرودة مياهه المنعشة..!

كنتُ هناك.. واقفًا على الشاطئ، تغسل أمواج البحر القادمة أطراف أقدامي بلطف في غدوّها ورواحها، وكلَّما هبَّت نسمات الهواء تطايرت معها شعرات رأسي المبعثرة!

لم أكن لأهتمَّ لكل ذلك الجمال من حولي، فمهما غسل البحر أقدامي، فلن يغسل أبدًا أحزاني..!

بدأ قرص الشمس بالانسحاب رويدًا، متواريًا خلف أمواج البحر، ومعه بدأ روَّاد البحر يتناقصون...

نادت الأمَّهات أطفالهنَّ للعودة إلى المنازل، وغادر الصّبية الذين كانوا يلعبون بالكرة معًا، وصدى أصواتهم المبتهجة يتردَّد في المكان!

ومكثت وحيدًا مع البحر، أشكو له همومي وأبثُّه أحزاني..

عامٌ مضى على الحادث، ولكنَّني ما زلت أعيش لحظاته وكأنَّه بالأمس وقع..! أصبحتُ كالمجنون، شارد الذهن، مشدود الأعصاب، غريبًا عن كلّ مَن حولي! والوقت الوحيد الذي أمضيه بصمتٍ وهدوء هو حين أقفُ هنا، أسترجع ذكرياتي معها..!

كانت أمواج البحر قد ارتفعت أكثر مع اشتداد هبوب الرياح، وأخذت تلطُمُ قدميّ بقوَّة، بعد أن كانت تغسلهما بلطف! لم أكن أهتمُّ لذلك أيضًا! كنتُ أسبح بفكري في زمانٍ ومكانٍ آخريْن..!

لقد كانت نجمًا سطع في سماء قلبي! فلماذا أَفَلَ سريعًا؟!

وفي غمرة شرودي.. شعرتُ بيدٍ تشدُّ قميصي بقوَّة! كانت طفلة صغيرة، تبدو في الخامسة من العمر، ظللتُ أنظر إليها من دون اكتراث، ولم تتكلم هي! فقط أمسكت بكفي ووضعت فيها شيئًا! ثم نظرتْ إليَّ وابتسمت ابتسامة ساحرة، عجزتُ أن أبادلها مثلها!

فتحتُ راحة يدي، فإذا فيها صدفة صغيرة ملوَّنة، غاية في الجمال!

وما زالت الطفلة واقفة أمامي وابتسامتها تزين وجهها، دقَّقتُ في ملامحها.. إنَّها هي! سارة! لكن من أين، وكيف جاءت؟!

الشَعرُ الذهبيُّ نفسه، والابتسامة الساحرة نفسها، لكنَّ لون عينيها كان من قبل عسليًّا، وهو الآن أزرق بلون أمواج البحر..!

سألتُها عن اسمها؟ لكنَّها لم تُجبني!

ظلَّت تنظر إليَّ بعينيها الزرقاوين، ووجهها الباسم..

ربتُّ على رأسها، أحسستُ بأنَّ نظراتها تنفذ إلى لبّ قلبي، تُفتّش عن بقايا حياة فيه..!

لقد صدَقَت زوجتي عندما قالت إنّي سأُجَنُّ إذا ما ظللتُ أعيشُ على خيالها! فها أنا ذا ألجُ - أسرعَ مما توقعت- عالمَ الجنون!!

أغمضتُّ عينيَّ، وقرصتُ وجنتيَّ بقوَّة، علّي أُفيق من هذا الوهم... ولما فتحتهما، كانت ما تزال واقفة أمامي: سارة، بعينين زرقاوين!

همستُ لها بحذر متسائلًا:

- سارة؟!

أغمضت عينيها بدلال، تمامًا كما تفعل سارة عندما تشعر باهتمام أحد بها، وضحكت، ثم أخذت تركض على الشاطئ، باتجاه أكواخ الصيادين... أردتُّ أن أركض خلفها، ولكنّي عجزتُ أن أجُرَّ أقدامي!

وفي اليوم التالي.. أتيتُ ثانية، ووقفتُ على الشاطئ طويلًا، لم يتغيَّر شيء فيه، مجموعات من الصّبية يلعبون بالكرة، وآخرون يسبحون في أحضان البحر، وفتيات يلعبن بالرمال، والأمَّهات يفترشن البُسُط، يراقبن أطفالهنَّ، وأصوات ضجيجهم ترجُّ الشاطئ رجًّا!

لم يكن أمرهم يعنيني في شيء، كنتُ فقط أبحثُ عن سارة! قلَّبتُ بصري في الوجوه الكثيرة حتَّى لمحتها جالسة على الشاطئ وحدها، تُقلّبُ الرمال بمغرفة خشبية صغيرة، وكأنَّما تفتّش عن كنز مطمور!

ناديتها بكل صوتي:

- سارة، سارة، سارة... لكنهَّا لم تُجبني!

اقتربتُ منها، وجلستُ بجوارها، نظرت إليَّ نظرة بريئة، أَسَرَت قلبي، وسَلَبتْ فكري!

ثم عادت لتحفر بمغرفتها الصغيرة في الرمال، كأنَّما لا يعنيها أمري!

ضحكتُ، وهمستُ في أذنها:

– لقد فهمتُ ما تريدين حتَّى لو لم تتكلَّمي!

وأخرجتُ من جيبي بضع قطع من الحلوى، وأعطيتها لها!

هكذا كانت تفعل من قبل! تتشاغل بأيِّ شيء عندما أعود من العمل، وتتجاهل ندائي، حتَّى أذهب بنفسي إليها وأعطيها الحلوى! تصرخ بي أمها دائمًا منتقدة أسلوبي في تدليلها، بحجَّة أنَّ الدلال الزائد يُفسد الأطفال! ولكنَّني لم أكن أهتم! فقد كانت سارة بدلالها كنسمة هواء تُنعش الحياة في قلبي..!

ألقت مغرفتها، وأخذت الحلوى بكلتا يديها، وبدأت تأكلها بفرح واستمتاع، كأنَّها لم تذق الحلوى منذ زمن! وبين حين وآخر، تلتفت إليّ وتتبسَّم، فينشرح لها صدري أكثر..!

أخذتُّ أمسح بيدي على رأسها بحنان، وأقصُّ عليها قصص الحيوانات التي تُحب سماعها كلَّما أكلت الحلوى. وعندما أنهيت قصَّتي... كانت سارة قد أنهت حلواها، وحينها كانت الشمس قد بدأت بالأفول، وغلَّف الكون لون الشفق الأحمر..!

وقفت سارة وبيدها مغرفتها، وطبعت قُبلة رقيقة على جبيني، ثم انطلقت راكضة بعيدًا عنّي.. ولم أجرؤ على اللحاق بها أيضًا!

وهكذا.. أصبحت زائرًا دائمًا للشاطئ! لقد اختفت سارة في البحر، وابتلعتها أمواجه! وها هي ذي تعود منه إليّ.. أو هكذا أقنعتُ نفسي!

فسارة الجديدة كسارة القديمة في حركاتها ومظهرها وسنّها.. ما عدا لون عينيها!

ويومًا وراء يوم... أصبحت سارة سلوتي وأنسي، وبسببها تغيَّرت حياتي، أضحى شعري مرتبًا، وهدأت أعصابي، وتحسَّن مزاجي، وبدأت أعمل من جديد بجد ونشاط بعد أن كدت أفقد عملي! وكلَّما سألني أحد عن السبب؟ أقول:

– لقد عادت سارة إليّ!

جُنَّ جنون زوجتي عندما أخبرتها.. وصرخت بي، وتوسَّلت إليَّ:

– (بأن أنساها، وأدعها ترتاح في الجنَّة عند ربها)

وبدأ زملائي يظنون بي الجنون! ولكنَّهم مع الأيام تقبّلوا الأمر، وسمعتهم يقولون:

– (المهم أنَّه ينجز عمله بهمَّة ونشاط!)، واقتنعت زوجتي كذلك بمنطق والدها:

– (مادام سيصبح هادئًا وودودًا، ويتعامل معك بلطف، فهذا هو المهم، واتركي جنونه لنفسه!).

أما أنا.. فقد كنتُ أعيش أجمل لحظات حياتي، وأقنعت نفسي بأنَّ سارة قد عادت من جديد..!

أخذت كيسًا كبيرًا من الحلوى المنوَّعة، وذهبت إلى الشاطئ كعادتي كل يوم ومنذ التقيت سارة، سرت على الشاطئ أُقلّب عينيَّ

في وجوه الأطفال باحثاً عنها.. لكنَّها لم تكن موجودة! انقبض قلبي حينها، وبدأت ضرباته تتسارع حتَّى خُيّل إليَّ أنَّ النّسوة الجالسات بالقرب مني يسمعن دقَّاته المضطربة! فأخذت أبتعد عنهنَّ قدر استطاعتي.. ناديت عليها بكل صوتي، لكنَّها لم تسمعني!

تُرى هل أخذها البحر ثانية؟

هل كانت حلمًا جميلًا جاء من الماضي ليُعيد إليَّ بهجة حياتي، وانتهى؟

ربَّما عليَّ أن أعترف بالحقيقة التي قالتها زوجتي:

– (الأموات لا يعودون، ونحن قوم مؤمنون بقضاء الله وقدره، وحياتنا يجب أن تستمر).

لقد غرقت في البحر أمام عينيّ... وما سارة الجديدة إلَّا خيال أقنعتُ به نفسي؛ حتى أعودَ إلى حياتي!

بدأت الشمس رحلة غروبها، ولم تظهر سارة أبدًا..

(لا بأس!).. هكذا قلتُ لنفسي!

لقد استعدتُّ حياتي، وغسلت ابتسامتها العذبة كل أحزاني وهمومي..! لا زالت كما كانت، نسمة هواء تُنعش الحياة في قلبي!

وقفتُ على الشاطئ وحيدًا، بعد أن غادر الجميع، ثمَّ قرَّرتُ أخيرًا أن أغادر مثلهم!

وفجأة، رأيتها على الشاطئ، تنظر بهدوء إلى أمواج البحر المضطربة..!

شعرتُ بسعادة غامرة لم أشعر بها قط في حياتي! ناديتها.. لكنَّها كعادتها لم تجبني! فذهبت إليها، وربتُّ على شعرها بحنان كما أفعل

كل يوم.. نظرت إليَّ بعينين حزينتين، لم تغمض عينيها بدلال، ولم تمد يديها طلبًا للحلوى، بل ظلَّت تنظر للبحر بلهفة وخوف..!

لقد كانت سارة تنظر هكذا من نافذة منزلنا كلَّما تأخرتُ في العودة من العمل، (فإلى مَن تنظرين الآن؟!)، لم تُجب..!

وقفنا معًا بصمت نرقب أمواج البحر المضطربة... ومضى بعض الوقت قبل أن يبدو من بعيد طيف قارب يطفو على الأمواج ببطء.. ورأيتُ عيني سارة تتسع! ومع اقتراب القارب أكثر بدأت تتقافز بسعادة ملوّحة بيديها، حتَّى رسا القارب على الشاطئ، ونزل منه رجل مُسن حاملًا سلَّة فيها ثلاث سمكات صغيرات!

أسرعت سارة إلى أحضانه، وقد ارتسمت على صفحة وجهها تلك الابتسامة السَّاحرة.!

اقترب منّي الرجل المسن، ومن دون أن أسأله بدأ بالحديث:

- إنَّها حفيدتي الصغرى (حورية)، لقد تأخَّرتُ اليوم في العودة؛ لذا قلقت عليَّ، فقد كان أبوها صيَّادًا وغرق في البحر.. أشكرك لأنك بقيت بالقرب منها.

ثم تنهَّد بعمق، وقال:

- لقد ولِدت- كما ترى- معاقة، لا تسمع ولا تتكلَّم، لكنَّها فتاة مرحة رغم كل شيء!

وجدت نفسي من دون وعي أُعلّق على كلام العجوز:

- إنَّها كنسمة الهواء، تُنعش الحياة في قلوبنا!

أحسستُ بيدها الصغيرة تشدُّ قميصي، فالتفتُّ إليها، فإذا هي تمدُّ

كلتا يديها إليَّ..! فأخرجت كيس الحلوى، ووضعته فيهما. ابتسمت ابتسامتها السَّاحرة التي ينشرح لمرآها قلبي! ثم أسرعت راكضة على الشاطئ- كعادتها- باتجاه أكواخ الصيادين، وخلفها سار الرجل المسن.

وعدتُّ أنا إلى منزلي، ولكن قبل أن أدخله عرجت على المتجر المجاور، واشتريتُ أفضل أنواع الحلوى ليوم الغد!

بيني وبين ابنتي

الأب:

كانت تجلس على الأريكة بهدوء، تقرأ في كتابها، شعرها الأسود الطويل يتهدل على كتفيها، بإحدى يديها تمسك بالكتاب وتقلّب أوراقه، وبالأخرى تعبث ببعض خصلات شعرها. أختلس النظرات إليها من فوق جريدتي، أتأمَّل تقاسيم وجهها الأبيض الجميل، وعينيها العسليتين الواسعتين، أرى فيها صورة أمّها (المرحومة)، وملامحها التي سحرتني في شبابي، فلم يهنأ لي عيش حتى تزوجتها!

كم من السنوات مضت منذ اليوم الذي حملوها فيه إليَّ بخرقتها البيضاء مباركين؟!، وكأبٍ لم يُرزق بأطفال من تسع سنين هي عمر زواجه، كانت سعادتي لا تُوصف، أحسست بالكون كلّه يحتفل معي بمولد صغيرتي الأولى والأخيرة، فلم أُرزق بعدها أطفالًا!، أسميتُها «أحلام»، وقد كانت ملاكًا، تحقَّقت على يديها كلُّ أحلامي!

ترفع رأسها عن الكتاب، فتراني أتأمَّلها مشدوهًا عن جريدتي، فتبتسم قائلة:

- مالك يا أبي؟

- لا شيء!

تعود إلى كتابها، وأعود إلى جريدتي، أُمرّر عينيَّ عليها، ولا أكاد أستوعب كلمة مما فيها!

في داخلي تعصف رياح قويَّة من الهموم والمخاوف كلَّما رأيتها تقرأ.. أعلم أنّي مَن شجَّعها على القراءة، فقد كان أحد أحلامي أن يكون لي أبناء مثقفون وعظماء، ولم تخيّب «أحلام» حلمي.. فمنذ أدخلتها الرَّوضة وهي الأولى على فصلها دومًا.. كم كنتُ فخورًا وأنا أسمع اسمها يتردَّد على منصَّات التكريم المدرسية كل عام..!

حرصت دومًا أن يكون الكتاب هديَّتي لها، فأُغرِمتْ بالكتب تمامًا كما أردت!

وكنت أشعر بالنَّشوة كلَّما حاورها أحد أصدقائي، ثم التفت إليَّ ممتدحًا ذكاءها ونباهتها!

أتذكَّر اليوم الذي جاءني فيه جاري «سعيد» يخطب «أحلام» لابنه، شعرت بالغيظ والمهانة، نفخت أوداجي، ورفعت رأسي، وسدَّدت نظرة مستنكرة إليه، وقلت:

– ابنك ليس متعلّمًا، بالكاد أنهى المرحلة الإعدادية بنجاح، ثم سافر مغتربًا، وابنتي متعلّمة، مثقَّفة، الأولى على صفّها! آسف، ابنك لا يليق بابنتي!

عاتبني الجميع لضياع هذه الفرصة لزواج البنت من رجل مقتدر ماليًّا، فتعذَّرت بأنَّ «أحلام» لا زالت صغيرة، وستُكمل دراستها الجامعية. وفي داخلي كنت أبني قصور الأحلام ب»أحلام»! فهل أخطأتُ؟

أتذكَّر الدموع التي ذرفْتُها في يوم تخرُّجها من الجامعة، وأنا أسمع اسمها يتردَّد في جوانب القاعة:

(الأولى على الدفعة: «أحلام»..)

ما زالت تلك الدموع تتدفَّق في مقلتيّ كلَّما تذكَّرت تلك اللحظات التي توَّجتني فيها ملكًا يهرع الجميع لمصافحته، والمباركة له. رفعتُ الجريدة أمام وجهي، وأنا أمسح القطرات المتساقطة على خديّ؛ كي لا تراها!

كنت أتأسَّف على أخي، وأنا أراهم يباركون له تخرُّج ابنه (ماهر) بتقدير مقبول!، وأقول في نفسي: مجاملات لا بُدَّ منها. وها هو ذا «ماهر» سافر مغتربًا، وعاد ليخطب ابنة خاله التي لم تُكمل دراستها عروسًا له، وها هو ذا ابن جاري «سعيد» وقد تزوَّج فتاة أُمّية، أحضرها من قريته!، وابنتي قابعة معي في بيتنا، بلا وظيفة ولا زواج!

الجميع معجب بذكائها وثقافتها، وليس في الجميع من يرى نفسه لائقًا بها، كلُّهم يتقزَّمون أمامها!

لكني أدركت أخيرًا، أنَّ كلَّ نجاح حققته، لا يُعدُّ شيئًا، أمام نجاحها في حياتها، بأن تُصبح في ظل رجل غيري!، فأنا لن أدوم لها!

أُشاهد عمري وعمرها يُطوى، فينتابني القلق! هل ظلمتُها عندما علَّمتها وثقَّفتها في مجتمع لا يتقبَّل المرأة المتعلّمة المثقَّفة؟!

تبدَّلت نظرات الفخر التي كنت أرمقها بها، فأضحت نظراتي لها- مؤخرًا- شفقة وحسرة!، وأهمس في نفسي كلَّما رأيتُها تقرأ: ليتها تضع الكتاب.. ليتها لم تكن يومًا الأولى!

***

«أحلام»:

كان جالسًا على الأريكة المقابلة لي، يضع قدمًا على قدم، يهُزُّ قدمه اليسرى هزًّا عصبيًّا، وبيده جريدة، أكاد أجزم أنَّه لم يقرأ حرفًا مما فيها!

رفعتُ نظري عن الكتاب الذي أقرأه، فرأيتُه غارقًا في مراقبتي – كعادته مؤخرًا– فتصنَّعت ابتسامة لا مبالية، وأنا أسأله:

– مالك يا أبي؟!

فتلعثم وارتبك، وأعاد نظره للجريدة القابعة بين يديه، قائلًا:

– لا شيء!

كم تجرحني نظرات أبي! هو لا يقول شيئًا، لكنَّ نظراته تُحدّثني بالكثير..!

أنا فتاة متعلّمة ومثقَّفة، نشأتُ في منزلٍ تُحلّق في أرجائه السكينة والمحبَّة، وتغمر جنباته الحكمة والثقافة، ويتزيَّن أفراده بالفضائل والأخلاق. منذُ صغري وأبي كلُّ شيءٍ في حياتي، تُوفّيت أُمّي وأنا دون الثانية عشرة من عمري، ولم تُنجب سواي، فكنتُ لأبي الابنة والحبيبة والصديقة!

ورثت عن أمي جمالها، وعينيها العسليتين الواسعتين، وشعرها الأسود الطَّويل، فكلَّما هاجَ الشَّوق بأبي لذكرى أمي قعد يتأمَّلُني، ويتغزَّل بملامحي التي تشبه ملامح أُمّي إلى حدٍ كبير، وربَّما قصَّ عليَّ شيئًا من ذكرياتهما معًا!، أمَّا ما ورثتهُ عن أبي فهو الذَّكاء وحبُّ العلم والمعرفة!

كان أبي سنَدي ومُعيني، شجَّعني ودعمني في سنوات دراستي كلها، واحتفل معي بكلّ نجاح حقَّقتُه، أهداني من الكتب الشَّيء الكثير، وقرأها معي، وتناقشنا حولها في أسمارنا كلّ مساء...

وكان ينظر إليّ بفخر، ويمتدحني أمام أصدقائه، ويَسعد كلَّما أثنى على ذكائي أحدُهم، فأَسعد لسعادته، وأتفنَّنُ في اختيار كلماتي لإبهارهم، حتى تزداد سعادته..!

زرع في قلبي العزَّة والثقة.. فلم تستطع أحلك مواقف الحياة أن تُزلزل ثقتي بنفسي، أو تخدش بناء عزَّتي!

فما باله الآن تغيَّر؟! فأصبح يرميني بنظرات تملؤها الشفقة والحسرة!، ألا يعرف أبي أنَّ نظراته تلك سهام قاتلة، تجرح كبريائي، وتهزُّ أوتاد ثقتي بنفسي؟!

أصبحت أهرع إلى مكتبتي؛ لألتقط كتابًا أهرب بنظراتي فيه، من أن تصطدم بنظرات أبي، كلَّما عاد إلى البيت!، كنتُ أحيا بنظرات الفخر كلَّما أشرق وجهه بها!، فلمَّا تغيَّر صارت نظراته تكويني، بل تكاد تقتلني!

عمري الآن ثلاثون عامًا... أصبحت كوردة مشرقة، ينزع عنها زارعها بتلة من بتلاتها كلّ يوم!، أو كعصفورة ملوَّنة، يَنتِفُ مالكها ريشها، ريشة بعد أخرى، لا يرضيه أن تبقى كما هي!. إنَّني أذبل تحت لفحات نظرات أبي الحارقة، وكلماته القلقة!

أخبرته بأنّي أرغب في إكمال تعليمي؛ للحصول على الماجستير – كما كان يحلم منذ زمن– فانتفض فزعًا، وتهرَّب من الموضوع، فلمَّا أصررتُ عليه، صدمني بقوله:

– (المجتمع لا يريد المرأة المتعلّمة، وأنا قلق عليك!)

أُحاول أن ألملم شتات أفكاري، وأعود لأقرأ كلمات الكتاب بين يديَّ، ولا أستطيع!، فما زالت عبارتُه التي صارحني بها، تصول وتجول في ثنايا عقلي، تُحطّم ما تبقى لي من عزة وثقة، وتنثرها كرماد على صرح الثقافة المزعومة في مجتمعنا!، الثقة التي غرسها أبي في كياني منذ صغري، وكبِرتُ وكبُرَتْ معي.. ها هو الآن ينزعها عني، يومًا بعد يوم!

أتذكَّر اليوم الذي تقدَّم فيه جارنا «سعيد»، ليخطبني لابنه الذي لم يُكمل دراسته، ووقف الجميع يؤيّدون هذا الزواج، ونسوا أو تناسوا ألَّا تكافؤ بيننا!، فمن أين للسَّعادة أن تجد طريقها إلينا؟! خِفتُ حينها كثيرًا أن ينسف أبي أحلامي في لحظة، ويرضخ لرأي الجميع، فيرميني كحمل ثقُل على ظهره، فناوله أوَّل المتقدّمين إليه!، لكنَّه رفض!.. كانت مشاعر الفخر تغمر كياني برفضه، وشعرت بالاطمئنان؛ لأنَّ لي أبًا مثقَّفًا واعيًا، لم يرتضِ أن يُضحّي بعقلي وقلبي من أجل المال، آمن بي وبأحلامي، وكفر برأي الجميع!

فلماذا تغيَّر الآن؟!، فصار يؤمن بآرائهم، ويكفرُ بقدراتي، وما حقَّقته من نجاح!

كم هو ظالم هذا المجتمع، الذي يُحطّم كلَّ نجاحاتنا، وأجمل أحلامنا، وأرقَّ مشاعرنا، على صخرة وهميَّة اسماها: (العُنُوسة!)؟!، وكأنَّنا بدون زوج لا نساوي شيئًا!. هل نحن بلا كيان؟!

كنت أسمع أحاديث صديقاتي عن الزواج، والخوف من العنوسة، ولا أُبالي... لم أشعر يومًا أنَّني ضعيفة أو ناقصة!. الجميع يرمقني بإعجاب، ويثني على ثقافتي، وأخلاقي، وجمالي، ولم ينل أحد ولا حتَّى المجتمع، وأفكاره العقيمة منّي، ومن ثقتي بنفسي!

لم أُقِمْ- قط- وَزنًا لتقاليد وأفكار مجتمع، قال لي يومًا أبي:

- (إنّه مريض!)، فماذا جرى حتَّى أصابته عدوى المرض؟!

كنتُ أنظر إلى تفاهة عقول زميلاتي، اللَّاتي كلُّ أحلامهن توصّل إلى طريق واحد، نهايته رجل!، وأستهترُ بنظرات المجتمع المتحجّرة، التي تجعل كلَّ نجاح تُحقّقه المرأة لا يساوي شيئًا، ما دامت دون زوج!، ولم ينل من كبريائي وثقتي إلَّا شخص واحد، واحدٌ فقط.. هو أبي!

تتزاحم الدُّموع على عينيَّ، كلَّما رأيتُ القلق باديًا على وجهه، ولكنَّها تتحجَّر في لحظة الخروج، فتعود أدراجها إلى منبعها في قلبي، فتُغرقهُ بفيضان الهموم والأحزان!

إنَّ بعض الدموع تستحي أن تذرفها العينان، فيبكيها القلم!، لذا أضحى الكتاب والقلم أعزَّ أصدقائي، واعتزلتُ مجالس الفتيات والأقارب؛ حتى لا تصدمني عبارات الدعاء المشفقة:

- (الله يرزقك الزوج الصالح)

دعوات في قالب إهانات!، أفلا يدركن أنَّها في ظهر الغيب أجدى وأنفع؟ دفنتُ نفسي في غرفتي، أشكو إلى ربي ظلم أبي والمجتمع، وأبثُّ أحزاني إلى قلمي ودفتري، وفي داخلي معارك طاحنة، تدور رحاها بين كبريائي وضعفي، ثقتي وعجزي، أحلامي وأحلام أبي..!، وأتمنَّى في كلّ مرَّة تصطدم فيها نظراتي بنظراته، أن أمتلك الشَّجاعة لأصرخ في وجهه:

كُفَّ نظراتك هذه عني...!

أوقف جريمة اغتيالي التي ترتكبها كل يوم...!

أبقِ لي رمقًا من الحياة..!

العوراء

العوراء.. هذا هو اسمي، أو ما ظننته يومًا اسمي!

مذ كنتُ طفلة والجميع ينادونني به، الجميع من دون استثناء، حتَّى أمي!

أقف أمام مرآة الحمَّام يوميًّا، حيث لا أحد يرقب طقوس ألمي وحسرتي، وأنا أتأمَّل ملامحي مع تلك العين الغريبة في زاوية وجهي اليُمنى، وأتساءل: لِمَ لمْ يخلقني الله كباقي إخوتي؟!

وحين أصبحت طالبة في المدرسة.. صرت «سميرة العوراء» أو (العورة!)، لا يُفرّقون بينهما!، يزرعون جمرة ملتهبة في قلبي، مع كلّ مرَّة ينادونني بهذا اللقب، ويظنُّونني اعتدت، وأَلِفْت، وقد رافقتني هذه الصّفة منذ طفولتي!

لا يُدركون أنَّني كلَّما كبرت، توطَّدت عُقدتي في نفسي، وتفاقمت آلامي وحسراتي، حتَّى بتُّ أرى نفسي (عورة) حقًّا، ينبغي أن تختفي وتُستر!

كنتُ أميل إلى البقاء وحيدة دومًا، فأنسحبُ إلى أقصى أركان المدرسة، حيث لا أحد هناك؛ لأُجالس نفسي وحدها!، أتوارى بعيدًا عن مجتمع الناس. تجرحني نظرات الشَّفقة، تمامًا كما تجرحني كلمات الاستهزاء!!

أكملتُ دراستي الثانويَّة بدرجات مرتفعة، لكنَّها لم تُفلح في زيادة ثقتي بنفسي!، ولم أكتسب خلالها أيَّ صداقات، إذ كنتُ أستحي من

نفسي، فأبتعد عن الجميع، ولم أسمح لأي علاقة نمت بيني وبين إحداهنَّ، أن تستمرَّ وتتوطَّد..!

كنتُ كلَّما أردتُّ الخروج إلى السوق، ترفض أختي الصغرى مرافقتي، تتعذَّر بانشغالها بالدراسة، وكذلك يفعل أخي! أدركت لاحقًا، أنَّهم يتهرَّبون منّي، ويخجلون من رفقتي! فازددتُّ حُزنًا وأسفًا..!

أمَّا أبي، فقد عدّني همَّه المقيم، ومنبع قلقه الدائم، الذي سيظل يرزح فيه طوال حياته!. يجلس بجانبي أحيانًا، يتأمَّلني وأنا أدرس في كتابي، وأسمعه يُتمتم:

- (الحمد لله على كل حال!)

فإذا ما رفعت نظري إليه عاتِبَة، ابتسم لي، وحوَّل أنظاره عنّي!

يتحدَّثُ إلى أمي- دومًا- عن شروطه في مَن سيكون زوجًا لأختي، فيضحك ويمزح، ثم يقطع - فجأة- كلامه ويتنهَّد، فأعلم يقينًا أنَّ اسمي قد جثم بهَمّهِ على قلبه، فانقطعت أنفاسه..!

كم أداري دمعاتي؛ كي لا يراها؛ فيزداد بسببي همًّا على همّ!، وأطوي في قلبي أطنانًا من الهموم، أشكوها إلى ربي حين يحلُّ الليل!

اعتزلت في منزلي، أبكي حظّي العاثر؛ حيث لم أكن سليمة كباقي إخوتي!، وأنتظر ساعة رحيلي عن الحياة، إذ ليس لي في هذه الدُّنيا شيء أحرص عليه!

وفكَّرت يومًا، حين خنقتني الدموع، أن أذهب إلى المسجد؛ لأبكي وحدي أمام ربي، وأشكو إليه ظلم الناس من حولي!.

استأذنتُ أمي وذهبت... كنتُ أتحاشى نظرات النَّاس في الطريق! لا أعلم حقيقة إن كان أحدٌ ما ينظر إليَّ، ولكنَّها عُقدة توطَّدت في نفسي، فصِرتُ أظنُّ النَّاس كلَّهم يزدرون هيئتي، أو يسخرون منّي!

وما إن بلغتُ المصلَّى حتى دلفت إليه مُسرعةً؛ لأختلي بنفسي مع ربي... وإذا بي أُفاجأ بالمكان مزدحمًا!، تختلط أصوات الأطفال بالنّساء الكبار، يجلسن حِلَقًا صغيرة تتوسطها إحداهنَّ، والمصاحف بين أيديهنَّ، يُقلّبن أوراقها بهدوء، وتلاواتٌ عذبة تتسرَّب إلى أذنيَّ، تهزُّ أوتار قلبي!

جلستُ في ركن بعيد، ووضعت مصحفًا على حجري؛ كيما أكون مختلفة..!

وفيما أنا غارقة في سواد أفكاري، إذ خلب لُبّي صوتٌ ناعم، يتغنَّى بالقرآن بهدوء وخشوع، بقيتُ أنظر للفتاة القارئة.. كانت- علاوة على صوتها الناعم الجميل- مليحة القسمات، بيضاء البشرة، فشعرتُ بالغيرة منها..!

كنتُ أهمس في نفسي:

- لمَ أعطاها الله هذا البياض في بشرتها، والجمال في مظهرها وصوتها، وجعلها تحفظ كتابه، وأنا أعطاني عينًا عوارء، جعلتني أتوارى عن أنظار الناس، فلا أستطيع أن أدرس مثلها؟!

وحين بلغ الحزن منّي مبلغًا عظيمًا، تسرَّبت من عينيَّ قطرات من الدمع، دون أن أشعر!، ولم أنتبه للمرأة التي جلست بجانبي إلَّا وهي تُناولني منديلًا أمسح به دموعي، وتسألني:

- لمَ تبكين؟

بدت لي في العقد الرابع من العمر، ترتسم بعض الخطوط السوداء تحت عينيها؛ دلالة على الأرق، عيناها صافيتان، لم أرَ فيهما نظرة سُخريَّة أو ازدراء!، وفي صوتها نغمة حنونة دافئة، سكنت روحي إليها، واطمئن لها قلبي، ومع ذلك لم أُجبها! شعرتُ بالخجل من نفسي، وبقيتُ صامتة، أتأمَّل الفتاة التي تقرأ، وصوتها الخاشع يطرق أبواب قلبي..

نظرتْ إلى حيث أنظر، ثم تبسَّمت، وقالت:

- صوتُ أمل بالقرآن جميل، وحفظها متين، إنَّها فتاة مثابرة، توشك أن تختم القرآن حفظًا، وهي الأولى على جميع طالباتنا! هل تعرفينها؟

هززت رأسي بالنفي، دون أن أتفوَّه بكلمة..

فأكملت:

- أمل تُكافح، تُسابق الأيام!، هي مريضة بتكسُّرات في الدم، إخوتها الذين أصابهم هذا المرض الوراثي، لم يبلغ أيٌّ منهم سنَّ العشرين!، وأمل الآن في التاسعة عشرة!، ومع ذلك، هي لا تُقيم لهذا الأمر وزنًا، تبتسم دومًا، وتقول: (الأعمار بيد الله، كم من صحيح مات من دون علَّة، وكم من سقيم عاش حينًا من الدهر؟! لا وقت للدموع، إذا كنتُ سأموت، فلأمتْ وقد حفظتُّ كتاب ربي، وتعلَّمتُ ما ينفعني في دنياي وديني!)

وقالت وهي تهمُّ بالقيام:

- نسيتُ أن أُخبرك أنَّها تستعد لدراسة الطب هذا العام!

تركتني المرأة في دوَّامة من التساؤلات والأفكار تغزوني، وذهبتْ...

صوتٌ يصرخ بداخلي:

- وماذا عني؟!. أنا التي استسلمت للوساوس والأوهام، تعيث في روحي فسادًا! وأسلمتُ نفسي فريسة لكلمات الناس، فاختبأتُ وحيدة، منتظرة الموت، دون أن أُنجز شيئًا في حياتي!.

غادرتُ المسجد بروح جديدة، وأمل يغمر كياني، لاحظتُ أنَّ لا أحد في الطَّريق يُعيرني اهتمامًا!، ينظر إليَّ أحدهم نظرة عابرة، ثم يعود لشأنه، يمرُّ الجميع بجواري دون مبالاة!، لقد كنتُ مقيَّدة بسلاسل من ضعفي واستسلامي، ولكنَّها كُسرت اليوم..!

لأوَّل مرَّة أقف أمام مرآة الحمام لأتلمَّس معالم الجمال عندي!، لأوَّل مرَّة أعلم بأنَّ لديَّ عينين عسليتين، ورموشًا طويلة ساحرة، وليَّ بشرة قمحيَّة صافية ونقيَّة، ولأوَّل مرَّة أيضًا، أكتشف أنَّ عندي غمَّازتين فاتنتين حينما أبتسم!!

في اليوم التالي قرَّرتُ أن أحفظ القرآن، وأن أكون رفيقة لأمل في دراستها للطب، فمُعدَّلي يؤهلني لذلك. لم أعد أُبالي بأحد، كنتُ- فقط- أُحدّد هدفي، وأسير إليه مستعينة بربي، وكُلّي ثقة بأنَّ الله وحده من يُحدّد قدري ومستقبلي!!

عشتُ أجمل أيَّام حياتي... وقد غلَّف الرضا والاطمئنان قلبي، وامتلكتُ الثقة بنفسي، وبقضاء الله!

وحين أصبحتُ مشرفة على التخرُّج في الجامعة، وقد ختمت القرآن، فوجئتُ بأبي يجلس بجواري، ويضمُّني إليه بحب، ويُقبل رأسي، وهو يقول:

- أنتِ أفضل أبنائي!

ثم ابتسم لي، وقال:

- هل تعرفين «محمد»، إمام مسجدنا ومدير مستوصف حيِّنا؟

قلت:

- نعم، مَن لا يعرفه؟!

قال:

- لقد تقدَّم لخطبتك.. يُريدك أن تكوني زوجته!

غربة روح

قرعت الباب بدقَّات منتظمة هادئة، ثم دلفت إلى المكتب بعد أن سمعت الإذن بالدخول:

- هناك شاب عربيّ يريد مقابلتك بشدّة.

رفع حاجبيه قليلًا، دون أن يُحرك رأسه، وبدا غارقًا وسط كومة من الملفَّات والأوراق القابعة أمام مكتبه، وردَّ بهدوء:

- اصرفيه، أنا مشغول، وأحضري لي فنجانًا من القهوة.

أغلقت السكرتيرة الباب خلفها بهدوء، فرفع رأسه قليلًا من فوق الأوراق، وتنهَّد بعمق قبل أن يغوص بجسده في الكرسي مغلقًا عينيه، وبدا كما لو كان غارقًا في بحار من الهموم توشك أن تبتلعه!

ثم عاد وانتصب مع دقَّات الباب المنتظمة، قبل أن تدخل السكرتيرة حاملة معها فنجان القهوة، ووضعته على المكتب، قائلة:

- لقد حضر المحامي جون ريتشارد، هل أدخله؟

- طبعًا، هذه الصَّفقة هي أكبر الصَّفقات التي قمنا بها، ونحتاج إلى دراسة كل شيء بدقَّة، حتى نربح الصفقة.

ثم مال على المكتب قليلًا، قائلًا بصوت خافت:

- ولا تنسي سهرة الليلة في المطعم، سآتي لأصطحبك بسيارتي.

أغلقت السكرتيرة عينيها برفق ودلال، وهي تُعيد بعض خصلات شعرها الذهبي خلف أذنها، ليبدو قرطها اللؤلؤي الجديد لامعًا وجذابًا، فيزيدها أناقة وجمالًا!

ابتسم وهو يتناول فنجان القهوة؛ ليرتشف منه رشفات، وأكمل:

- أحضري لي الملفات المتعلقة بالصَّفقة كافَّة أوَّلًا، قبل أن أقابل المحامي.

وعاد ليغوص في مقعده وهو يتخيَّل ثروته المتزايدة، مُردفًا:

- أتعلمين كم من الأموال ستُدر علينا لو نجحنا في هذه الصفقة؟!، سأشتري لك حينها خاتمًا من الألماس، وسنحتفل بزفافنا في أفخم الفنادق، وسندعو جميع الأصدقاء، وسيتحدث الجميع عن زفافنا!

تبسَّمت السكرتيرة سعيدة بما تسمع، وهمَّت بمغادرة المكتب لإحضار الملفات، حين تذكَّرت شيئًا، فالتفتت إليه قائلة:

- الشاب العربي ما زال هنا، ويرفض المغادرة حتَّى يراك!

قطب جبينه بشدَّة، حتَّى تلاقى حاجباه معًا، وبدا وكأنَّ كابوسًا مزعجًا اقتحم سلسلة أحلامه الجميلة فبعثرها بعنف!

فضرب بكفَّيه ظهر مكتبه حتَّى اهتز ما عليه، وتناثرت بضع قطرات من القهوة فوقه، صارخًا:

- اصرفيه ولو بالقوَّة، لا ينقصني إلَّا هؤلاء المتسوّلون يحصلون على منح من دولهم الفقيرة، ثم يأتون إلينا ليمتصُّوا ما كسبناه بعملنا وعرق جبيننا!!

تراجعت السكرتيرة مع نوبة غضبه المفاجئة!

انتبه لذلك، فتنحنح بحرج وهو يشير إليها بالإسراع في إحضار الملفات، وعادت بعد دقائق معدودة ومعها رُزمة من الملفات، وظرف صغير، وضعتهما على المكتب معًا.. نظر إلى الظرف، ثم حوَّل نظره إليها متعجبًا! فقالت:

– وضع الشاب هذا الظرف لتقرأهُ ما دُمتَ لا تستطيع مقابلته. ثم استأذنته وانصرفت لعملها.

بدأ يُقلّب الملفات، ثم أخذ الظرف ليلقيه بعيدًا فوق الأوراق القديمة، لكن ما إن تناوله حتَّى حانت منه التفاتة إلى عنوان المرسل كانت كفيلة بأن تُسمّر يده وعينيه، وسيطر عليه الوجوم قليلًا، قبل أن يعزم أمره ويفضَّ الظرف ويخرج منه الرسالة!

أخذ يقرأها بتمهل:

((عزيزي:

الدكتور/ شائع المهندس/ شائع الأستاذ/ شائع

لا أعلم ماذا تكون قد أصبحت عندما تصلك رسالتي هذه، لكنَّك مهما كنتَ، وأصبحتَ، فإنك ستظل على الدَّوام ولدي الحبيب شائع!

لقد اشتقت إليك كثيرًا، وأتمنَّى أن أراك، وأشمَّ عبيرك الزكي، وأغمرك بدفء أحضاني، كما تغمر الشمس الناس بأشعتها الدافئة كل صباح، وأتوق لأن أمسَّ بكفي صفحة وجهك الجميل كما كنتُ أفعل، وأن أسكب عليك مقادير لا تُحصى من حبي وخوفي، وأن أطبع على جبينك أحرَّ قبلاتي!

ولدي الحبيب:

لقد خطَّت السنون آثارها عليَّ... فانحنى ظهري، وضعفت صحتي، وغلَّف البياض رأسي من أوَّل شعراته إلى آخرها! لكن ما زالت كلماتك العذبة حيَّة في قلبي، تُشعُّ بالنور والضياء، وتبعث في قلبي الأمل، فأظل أترقَّب من نافذتي اليوم الذي تعود فيه، وقد حقَّقت أحلامك، لكنَّك تأخرت كثيرًا! فهل تُراك نسيتنا؟!

ألا تذكر وعدك ليَّ في آخر يوم لك قبل أن تُسافر للمنحة الدراسيَّة؟! قلت لي حينها: انتظريني، سأعود إليكِ رجلًا تفخرين به، رجلًا يحمل مشعل النور، نور العلم الذي سيُضيء مدينتنا، ويبعث فينا حياة جديدة! هذه مسؤوليتي يا أمي، ومسؤولية كل شاب طموح. يجب أن نُساهم في رسم معالم مستقبلنا، ومستقبل الأجيال القادمة بعدنا، لا يجوز أن نبقى هامدين وغيرنا يتقدم! فلا تخافي يا أمي، سأظلُّ وفيًّا لكِ، ولأرضي وأمتي. سأظلُّ قابضًا بقوَّةٍ على قيمي وأخلاقي.

ثم طبعتَ على جبيني قبلة دافئة، ما زلتُ أشعر بها تنبض حيَّة في جبيني، فأنا أضعُ يدي عليها، أتحسَّسها كلَّما غمرني اليأس بعودتك، أو أقلقني السُّهاد من طول غيبتك!

أتخيَّلك كل يوم قادمًا من بعيد، تحمل شهادتك عاليًا، تُحلّق في سماء المجد كما تُحلّق الطيور! فأتلقفك بأحضاني، وأغمرك بعطفي وحناني، وأسمع صوتك الشجي، فيطرب لسماعه قلبي، ويرقص فرحًا وأنت تناديني: (أمي.. لقد عدت!)

فإن تكُ مشغولًا بدراستك، وأحلامك التي ما فتأت تلاحقها، فإني مشغولة بك، وبوعدك الذي قطعته لي، وبالأمانة التي تركتها بين يدي قُبيل رحيلك...!!

أم تُراك نسيت (أحمد)؟! ابنك الذي ماتت أمه، ورحلت أنت عنه، فبتُّ له الأب والأم معًا.!

وكلَّما اشتد شوقي إليك، سكبت نور عينيَّ على وجهه، فأراك فيه كما يُرى البدر على صفحة الماء في الليلة الظلماء! لقد ورث عنك ملامحك كلها، حركاتك، تصرفاتك، وكأنَّه أنت في صغرك.. بل حتى ورث أحلامك!

لقد غدا ابنك اليوم شابًّا مجتهدًا وطموحًا، يحلمُ بأن يبني الوطن، ويحمل شُعلة العلم لينير المستقبل، مثلك تمامًا! وكأنَّهُ قد أبصرَ شبحكَ أمامهُ فقاده إلى دربكِ نفسه، فأمسى سائرًا فيه دون أدنى تردد!، تحفّزهُ كلماتُكَ التي ما برحتُ أهمسُ بها في أُذنيه صباحًا ومساء..!

ولدي الحبيب:

أدعو الله من كل قلبي أن يحميك ويحفظك ويعينك، ويُطيل في عمري حتى أراك عائدًا، تحمل النور في راحتيك، لتُضيء به دربنا الحالك! فعُد سريعًا، فأيامي في هذه الحياة باتت معدودة!

ملاحظة:

لا بد وأنك قد عرفت أن حامل الرسالة هو (أحمد)، لقد اجتهد كثيرًا حتى حصل على هذه المنحة الدراسية. أرأيت الشبه الذي بينكما؟!.. أمك لا تُخطئ أبدًا).

فغرَ المهندس شائع فاهُ من هول الصدمة، وبدا وكأنَّ رصاصة قاتلة قد اخترقت قلبه، فمزقته إربًا.!

وسرعان ما نفض ذهوله، وانتفض مغادرًا مكتبه.. سيطرت الدَّهشة على سكرتيرته وهو يسألها متعجّلًا:

– هل ترك الشاب العربي عنوانه، أو أيَّ شيء يدلُّ على مكانه؟

فناولته بطاقة صغيرة، مكتوب عليها عنوان سكن داخليّ لإحدى الجامعات. اختطفها من يدها، واندفع راكضًا إلى الشارع، وهو يقول:

– ألغِ جميع مواعيدي اليوم، بما فيها سهرة الليلة، فأنا مشغول بما هو أكثر أهميَّة من كل ذلك!

ثم ركب سيَّارته وانطلق مُسرعًا...



قلب الأم

ما أكثر اللحظات الصعبة في الحياة!، ولكن ليس هناك أصعب من لحظة يُبتر فيها جزء منك، أو تُسلَب فيها قطعة من كيانك..!

وقفتُ أمام البوابة بجسدي دون عقلي، صافحت كل يد امتدت لتشدَّ على يدي، ولثمتُ على خد من لثمتني، لا أعلم إن كان مَن أمامي يهنئ أم يعزي، لكنَّ روحي حتمًا كانت منزوية في ركن ما من قلبي، تبكي مصيبتها بصمت، وترثي قطعة منها، ترجوها أن تبقى، ولا تجرؤ على البوح!

انسحبتُ بهدوء إلى غرفة المرايا، ووقفتُ أتأمل ملامحي عليها...

صبغتُ وجهي بالألوان لأطمس معالم الحزن البادية على صفحته، فتجهَّم قلبي نيابة عنه، وراح عقلي يسبح عبر بحار الماضي العميقة، تتقاذفني أمواجه لتقف بي على مرافئ الزمن، وتغمر روحي في عطر اللحظات الجميلة، ليفوح عبير الذكرى، ويوقف لدقائق عجلة الزمن!

صدى صوتها الصغير يرنُّ في مسامعي، يتردد في جوانب عقلي كنغمة جميلة، فأحتضنها بلهفة وشوق!

منذ اللحظة التي سكنت فيها بين يدي، بعثرتُ مشاعري كلَّها نحو الجميع، لأعيد ترتيبها بشكل مائل، لتصبَّ نحوها وحدها، فغمرتها بفيضان الحب والحنان، وأسبغت عليها مقادير لا تحصى من خوفي وقلقي، ومع أوَّل خطوة خطتها على الأرض، وهي تتشبث بأصابع

يديّ، أسدلت عليها ستارة لا تُرفع من الرعاية والاهتمام، وأسكنتها في ركن واسع من قلبي، لتصبح سيدته الأولى من دون منازع!

جعلتها أميرة في مملكتي الصغيرة، وسعيت بعزم لأجعل من أحلامها حقيقة. راقبتها بشغف وهي تحبو وتسحب.. تمشي وتتعثر.. تجري وتلعب.. ثم وهي تقرأ وتكتب.. أختلس النظرات إليها عندما تأوي إلى فراشها، وقد هجر جسدها النامي مأواها القديم الآمن بين أحضاني، فتبدو لي كملاك راقد على سحائب مملكة الأحلام! أتلمَّس شعرها الأسود الناعم، وأستمتع بنغمة أنفاسها المنتظمة الهادئة!

اتخذتها صديقة ورفيقة، شاركتها أفكارها، آمالها، تطلّعاتها، بل وكلّ أحداث حياتها، فإن لم أكن معها، تقُصُّ عليَّ إن عادت كل ما جرى لها!

كانت معي في كل رحلاتي وزياراتي، ولم تفارق يدها يدي!

سمعتُ أصوات الزغاريد ترتفع، فخرجت إلى القاعة..

تأملتها من بعيد.. ابتسامتها الساحرة تسلبني لُبي! وها هي ذي توزعها على الجميع كيفما اتفق، تختال في ثوبها الفخم كـ(سندريلا) في نهاية قصتها، فهل تكون هذه نهاية قصتي معها؟

التفَّ الجميع حولها يتغنَّون ويضحكون، وبقيت وحدي في الركن البعيد، أكتفي بتأملها بصمت، وأخشى إن اقتربت منها خذلان عينيّ، واستسلامهما لسحائب الدموع المتجمعة بكثافة، فتهطل أمطارها الغزيرة مفسدة أجواء الفرح، معلنة سريعًا بداية النهاية، وما زلتُ أرجو اللَّحظة الحاليَّة أن تمتدَّ إلى ما لا نهاية!

يدها تحتضن يده، وتزين وجهها ابتسامة رضا وسعادة، وقد تورَّد خدها الأبيض حياء، سارا جنبًا لجنب على السجادة الحمراء، كلّ خطوة يدنوان بها مني يُعلن بها عن نهاية رحلتها معي، وقُرب الفِراق، وأنا التي أذوب شوقًا لها إن غابت ساعات عني، فكيف بها تغادرني إلى الأبد؟

كيف اختصر الزمن السنين، حتى صار الجسد الصغير الذي كان يقبع بين يديّ، قامة تتسامى في الارتفاع على قامتي؟

وقفتْ أمامي ووضعت يديها على كتفي تتأمل ملامحي.. تقرأ مشاعري.. ترى بعين قلبها الذي خفق له قلبي أطياف دمعاتي الحبيسة، فتأبى إلَّا أن تحوّلها حقيقة!

قبَّلت رأسي، وشممتُ رائحة عطرها الفواحة وهي تدفن وجهها بين أحضاني للمرة الأخيرة، وهمست لي:

– أحبك ماما!

فانهزم كبريائي العتيد أمام كلماتها الرقيقة، وغُسِلت ألوان الفرح بفيضان الدموع المنهمرة رغمًا عني...

وطال العناق....

حتى وضع يديه على كتفيها بحنان، وانتزعها من بين يديّ، وصافحني بقوَّة، ثمَّ طبع هو الآخر قبلة على جبيني، وهمس في أذني:

– شكرًا لأنَّك أنجبتِ لي هذا الملاك!

وعادت يداهما تتشابكان، ليكملا طريقهما مبتعدين عنّي..!

تسمَّرتُ في مكاني، أحملق بذهول في جسديهما المتلاشيين من أمامي... ثمَّ في السيارة المبتعدة... لفَّ المكان سكون موحش بعد

أن غادر الجميع، وما زلتُ واقفة أحملق في خيالها المختال أمامي، واستنشق بقايا عطرها العالقة في الهواء!

شعرتُ فجأة بيد قويَّة تضمُّني، وتمسح سيل دمعاتي!

- أما زلتِ هنا؟! أنتظرك منذ ساعة في السيَّارة!

كان واقفًا بقربي، تُحيط إحدى ذراعيه بي بقوَّة، وتمسح الأخرى دموعي بلطف!

شعرات رأسه السوداء تنازع للظهور وسط البياض الطاغي عليها، وكأنَّها بقايا اللَّيل توارت بخجل خلف أنوار الصباح!

أسكنتُ رأسي المثقل بالهموم على صدره الواسع، وهمست بصوت هدَّته الدموع:

- لقد كانت روح سعادة تسري بيننا، فكيف سأطيق الحياة دونها؟!

فهمس بدوره لي:

- هكذا هي الحياة يا حبيبتي، فكما تركتِ منزل أهلك يومًا إلى منزلي، حان الوقت الذي تترك فيه صغيرتنا منزلنا إلى منزل مَن اختارته شريكًا لحياتها.

طبع قُبلة دافئة على جبيني، وهو يجرُّني من يدي بلطف إلى السيَّارة، وما زالت ذراعه الأخرى تحتويني بقوَّة...

حينها تسلَّلت إلى وجهي ابتسامة صغيرة، كسرت قيود الحزن الجاثمة على قلبي، مُعلنة إعادة ترتيب اتجاهات مشاعري من جديد!

إعانة

لا تجد الشَّمس مَن يوقفها عند حدّها حين تكون السماء صافية، خالية من الغيوم، فتتمادى بإرسال حُزم أشعَّتها الحارقة، لتسلق الجباه العارية على نار هادئة، بعد أن صبغتها على مدار سنين بلون نحاسي عتيق...

أفواج النَّاس تزدحم أمام بوَّابة المبنى القديم في حيّ الثوَّار، افترش الأرض بعضٌ من كبار السن في حِلَقٍ، يتبادلون أطراف الكلام، لا أحد منهم يعرف الآخر، لكنَّ همومهم تلاقت في هذا المكان، وتعارفت، فتعانقت!

تُميّزهم (كوافيهم) البيضاء المنقوشة، والغَترة التي يضعونها على أكتافهم، وتُسدل أطرافها على جانبي صدورهم، ولا يجدون حرجًا، أن يمسحوا بأحد أطرافها قطرات العرق المتجمّعة بغزارة على جباههم، وعلى جانبيّ السور تتكئ النّسوة، مُسندات ظهورهنَّ على الجدار، متلفّعات بالحُجُب، وقد تتعالى أصواتهنَّ أحيانًا لتخترق الحُجُب المضروبة على الوجوه!

تتحدث إحداهنَّ عن بناتها الخمس، واحتياجاتهنَّ التي لا تنتهي، بينما تحكي أخرى عن زوجها، والحادث الذي تعرَّض له قبل عشر سنوات، وأقعده على الكرسيّ المتحرك مدى الحياة. تختلف الأحداث التي مرَّت بحياة كل واحدة منهنَّ، بينما تلتقي المشاكل والهموم، وكأنَّما صُهِرت كلُّ الأحداث معًا في بوتقة واحدة، فنتجت عنها هذه الهموم والمشاكل المتشابهة!

في الجهة المقابلة للسور تتعالى أحيانًا الضحكات، وأحيانًا الشتائم واللعنات، حيث يقف مجموعة من الشباب، لا يكفُّون عن رمينا بسهام أعينهم مع كلّ طُرْفة يلقونها، وما يعقبها من وابل الضحك المبالغ فيه، بقصد لفت أنظار الشَّابات منَّا!.

مجموعات الرجال تتوزَّع في كل مكان، منهم القاعد والقائم، أفرادًا وجماعات، بينما تنحسر مجموعة النّساء على طول السور، كثير من العجائز، وقليل من الشَّابات، ومَن هُنَّ في منتصف العمر، وقد افترشنَ المكان جلوسًا، بعد أن كلَّت أقدامهنَّ من طول القيام والانتظار.

أُحوّل أنظاري ما بين ساعتي والبوَّابة المغلقة مرارًا، وأتنهَّد بألم لضياع أجمل لحظات النوم الصباحيَّة، فقد انتزعت نفسي من السرير قهرًا؛ طمعًا في أن أكون أوَّل الواصلين، ثم أتمكَّن من العودة سريعًا، ارتضيت أن أُغلق بوَّابة أحلام المنام الخياليَّة، لأرتقب انفتاح بوَّابة أحلام الواقع، التي ستُخفّف عنّي بعض العناء، وستغترف شيئًا من الهموم الجاثمة على قلبي، وها أنا ذا وسط خليط البشر المتزايد دقيقة بعد أخرى، بانتظار انفتاح البوابة.. ولم تُفتح بعد!

يصرخ أحد المنتظرين بين فينة وأخرى:

- هيا افتحوا البوَّابة يا.........

تتنوَّع الشتائم طبقًا لتنوُّع طبقات النَّاس، والمستوى العمري والثقافي، وجنس الشخص الذي فقد صبره، فانفلتت منه الكلمات.. فأضطر أحيانًا إلى إخفاء وجهي بين كفيّ، خجلًا مما أسمع، وأُشيح به أحيانًا، وأبتسم متشفّية في أحيان أخرى!

وبعد مرور ثلاث ساعات، بكلّ تفاصيلها المملَّة من دقائق وثوان... وكزتني المرأة التي بجانبي، فالتفتُّ إليها متسائلة!، فإذا بها تُشير إلى البوَّابة، وتقول: فُتحت أخيرًا، أسرعي واحجزي لنا مكانًا في الطابور.

لم أنتظر لأستمع لباقي كلامها الذي برَّرت به طلبها بأن أحجز لها مع أنّي لا أعرفها، بأنها سمينة، وثقيلة، وحركاتها بطيئة، وتُعاني من الروماتيزم، وستحتاج إلى وقت طويل للنُّهوض، والمشي، والزحف بين أكوام البشر المتدافعة و.. و...

حين أنهت حكايتها، كنتُ فعلًا قد حجزت مكانًا لكلتينا في طابور النّساء، وكافحتُ مستبسلة استبسال القادة الفاتحين، لأفتح لها ثغرة في الطابور، لتقف خلفي حين تصل، متنازلة عن بعض كرامتي التي نالت منها النّسوة خلفنا بالشتائم والسباب!

استمر الطابور طويلًا، وكأنَّه لا ينتهي، وكلَّما خرجت إحدى النّسوة من المقدّمة، وهي تُحصي ما بين يديها...، تقدَّم الجميع خطوتين، في حركة رتيبة وبطيئة!

كنتُ أتنفَّس بصعوبة مع اختلاط الأنفاس وتقاربها، ولا أجد بدًّا من رفع حجابي عن وجهي، لأُجدّد الهواء الدَّاخل إلى رئتي.

مضت ساعة كاملة قبل أن أقف في أوَّل الطَّابور، ويحين دوري، رأيتُ المحاسب جالسًا على كرسي خلف جدار زجاجي غليظ، تبدو عليه بعض الخدوش التي توحي بالقِدَم، وفي مقدمته نافذة صغيرة، تسمح بتمرير الأشياء.

التفتَ إليَّ بضيق واضح، وقد ارتسمت على جبينه عدة خطوط من الجلد المنكمش على بعضه، وقد قطب جبينه حتى تلاقى حاجباه

للحظات، ورمقني بنظرات توحي بالملل والضيق، وتُشعرني بالمذلة والهوان!، ثم أرخى نظَّارته على عينيه، بعد أن كانت تستقر على البقعة الخالية من الشعر في رأسه، وقد تراجع حاجباه إلى مكانيهما، وتلاشت بعض الخطوط التي كانت تُشكّل جبينه.

ومدَّ يده إليَّ ليستلم البطاقة، فناولته إياها، ألقى عليها نظرة خاطفة، ثم قلَّب السّجل الكبير أمامه، وكتب عليه بعض الكلمات التي لم أتبيَّنها لرداءة خطه!، تأمَّل البطاقة مليًّا، ونقل إلى السّجل الأرقام المكتوبة عليها، ثم رفع السّجل إليَّ مع علبة المداد الزرقاء، فوضعت إبهامي على المداد، ثم طبعتُ بصمته حيث أشار إليَّ في موضعين مختلفين، أعطاني بعدها البطاقة بعد أن ختمها، ثم ناولني أخيرًا الإعانة المالية، من دون أن ينبس أيٌّ منَّا ببنت شفة!

خرجتُ من الطابور أتنفَّس الصّعداء، وأُحصي الأوراق النقديَّة بين يديَّ بحرص..

ركبتُ الحافلة إلى السوق، واشتريت خُضارًا منوَّعًا، وبعض السمك، وعرجت إلى المتجر المجاور لمنزلي، فاشتريت منه كيسًا من الدقيق، وسلَّمتُه ما تبقَّى من المعونة، لسداد الديون المتراكمة عليَّ من أشهر مضت...

ثم عدتُ إلى منزلي بعد ستّ ساعات من مغادرتي له في الصباح، حاملة معي أكياس الخضار، والسمك، والدقيق، لا غير.. وقد تبخَّر كلُّ أثرٍ للإعانة!

مذكّرات طبيبة نفسية

كانت على سريرها توشك أن تنام بعد يوم عمل حافل، حينما تذكَّرت شيئًا فنهضت من سريرها وجلست إلى مكتبها المنزليّ، وتناولت دفتر مذكّراتها وفتحت صفحة قديمة ممتلئة بالكتابة، وكتبت على هامشها:

اليوم: الأحد ١/ ١/ ٢٠١٧م

الساعة: ١:٠٠ بعد منتصف الليل

(زارتني اليوم الفتاة في عيادتي، يئس منها أهلها، وتُركت لها حياتها، لقد أنقذها الجنون!)

ثم وضعت القلم جانبًا، وشرعت تقرأ ما كان مكتوبًا في متن الورقة منذ سنوات مضت:

اليوم: الخميس ١/ ١/ ٢٠١٤م

الساعة: ١٢:٠٠ ظهرًا

كنت أُوشك على إغلاق العيادة، أُرتب ملفَّات المرضى، وأُحدّد ما سآخذه معي للمنزل، وأجمع أوراقي وأقلامي وأعيدها لمكانها... عندما أخبرتني الممرضة بوجود امرأة وابنتها تُصرَّان على مقابلتي! فلم أجد بُدًّا من أن أُعيد الملفَّات على المكتب، وأجلس لدقائق أخرى، لأستقبلهما.

جلستا أمامي. إحداهما امرأة في الخمسين من عمرها، والأخرى شابَّة سمراء جميلة رغم شحوب وجهها، ونُحفها الشديد، ومسحة الكآبة التي تغشى ملامحها... عرفت لأوَّل وهلة أنَّها المريضة!

فتحتُ ملفًّا جديدًا، وسألتها:

- اسمكِ؟ وممَ تشتكين؟

ردَّت المرأة العجوز:

- هذه ابنتي (حفصة) وهي دائمًا حزينة مكتئبة، وصارت مؤخرًا قليلة الكلام، ممتنعة عن الطعام، لا تكاد تنام!، نشكُّ أنا ووالدها أن شيطانًا تلبَّس بها، أو أنَّ عينًا حاسدة قد أصابتها! ولكنَّ جارتنا قالت إنَّها ربما تكون مصابة بلوثة من جنون، ونصحتنا بعيادتك!

التفتُّ إلى الفتاة، فوجدتها زائغة العينين، خائفة مرتبكة... فأحببت أن أُطيّب خاطرها، وأُهدئ من روعها، فقلت:

- لا تقلقي، لا أظنُّك مجنونة أبدًا، فقط أخبريني بكلّ ما تشعرين به!

لم تتكلم، وعانقت نظراتها الأرض بوجل، فقالت العجوز:

- زواجها قريب، والعريس لن يرضى بها هكذا، فإن لم يكن لديكِ علاج، فسنذهب بها لمن يكتب لها حجابًا!

حدَّجتُ العجوز بنظرة استنكار، ولمحتُ الفتاة توجّه إليها نظرات عتاب ولوم، فاستدعيت الممرضة وأمرتها أن تُخرج العجوز لأتكلَّم بحريَّة مع المريضة...

خرجت العجوز غاضبة، منزعجة، وبقيتُ وحدي مع الفتاة الصامتة.

وسألتها مجددًا:

- أخبريني بكلّ شيء تشعرين به، ولا تخافي فلن يطَّلع أحد على الملف الذي أكتبه، ولا حتى أمك! وشددت على حروف كلمة أمك..

رفعت إليَّ عينين ساجيتين حزينتين، وزفرت بقوَّة وكأنَّما تطرد همومًا أثقلت صدرها، وجثمت على أنفاسها طويلًا، وبعد فترة صمت طويلة بدأت بالحديث فقالت:

- إنني أطوي مشاعري في قلبي بحرص، كما أطوي أوراقي، ولوحاتي، وقطع ملابسي، وكل شيء مهم في حياتي! إنَّ مشاعري كالألوان تمتزج لتنتج لونًا آخر، فإذا ما طرأ بياض الحب على قلبي مزجته بسواد الخوف، لتسيطر على أجوائه المشاعر الضبابية الفاترة، فلا غيث يهطل ولا نسمة هواء نقيَّة تهبُّ عليه، وإذا ما نَمَت براعم السَّعادة الخضراء هبَّت عليها عواصف القلق لتحرقها.. فيعمَّ الرماد أرض قلبي! إذا كانت الحياة توصف بالألوان، فإنَّ لون حياتي هو الرمادي!

وزفرت بقوَّة وهي تفرك يديها ببعضهما تارة، وتُفرقع أصابعها تارة أخرى، وأكملت:

- إنني لم أبلغ بعد عامي الثلاثين، وهذا هو زواجي الرابع! فحين بلغتُ الرابعة عشرة من عمري قدَّمني أبي مهرًا لزواج أخي، في زواج مبادلة بين العائلتين، لأصير دون أن أعي زوجة لرجل غليظ يكبرني بعشرين عامًا! كنتُ أهرب من منزله إلى منزل أبي كل يوم باكية شاكية، فيعيدونني إليه... حتى رقَّ قلب أخي لي، وقد تحسنت أحواله، فدفع لزوجي مهر أخته وحرَّرني! فبتُّ مطلَّقة ولم أبلغ بعد عامي الثامن عشر! فاغتمَّ والداي، وضاق صدرهما بلقب مطلَّقة، فلم يألُ أبي جهدًا في أن يجد عريسًا آخر يستُرني، ويمسح عنّي عار الطَّلاق حدَّ وصف أمي!

كنتُ ألعب مع جارتي، حين جاءني أبي ليخبرني بأنَّ شابًّا خطبني، وقَبِل هو. رفضتُّ محتجَّة، فصاحت بي أمي:

- الرأي رأي أبوك! منذ متى كان للبنت عندنا رأي في زواجها؟!
- ولكنني لا أعرف عنه شيئًا، ولم يرني أو أره؟!
- ليس مهمًّا، هذا أفضل من أن يعلق بك لقب مُطلَّقة!

أقنعني أبي بعدها بالزَّواج، وزيَّن لي العريس، شابٌّ عشرينيٌّ ميسور، سيوفّر لك بيتًا كبيرًا مفروشًا بأرقى الأثاث... ووصلتني هدايا العريس في اليوم التالي: أثواب وأقراط وأساور لم أرَ مثلها أبدًا في حياتي... واحتفى كل البيت بهذا الزواج العظيم!

وزوّجتُ مُكرهة في حفلة صغيرة في منزلنا، واصطحبني أبي بنفسه إلى منزل زوجي الفخم الكبير.. ليدخل عليَّ بعدها رجل مسنٌّ في السبعين من عمره، يمشي متوكئًا على عصاه، وقد شاب شعر رأسه أجمعه، وتجعَّد جلد يديه ووجهه... ليقول لي أبي:

- هذا زوجك!

ويتركني مصدومة باكية، ويذهب...

جفَّت دموعي كلُّها خلال ذاك العام، وعدتُّ إلى منزل أبي في العام التالي أرملة تحمل ثُمن المال...!

أما زوجي الثالث فكان أوَّل طارق لمنزلنا، بعد عامين من ترمُّلي، شاب غريب عن البلد رآني خارجة في زيارة إلى منزل جارتنا، فأحبَّني.. وأحببت وسامته وأناقته.. وتقدَّم إلى أبي خاطبًا وقدَّم مهرًا ضخمًا فوافق أبي فورًا، ووافقت أنا، وعشتُ معه أجمل أيَّام حياتي، نسيح في حدائق البلد، وآثارها، وشواطئها، وجبالها...

لكن لم تدم فرحتي طويلًا، فبعد عامين كالحلم مرًّا، استيقظت مذعورة وزوجي يحزم متاعه مغادرًا البلد دون عودة، قائلًا لي:

- انتهت المدَّة المحدَّدة في العقد لزواجنا!

مضى على هذه الحادثة خمسة أعوام... مرضتُّ خلالها كثيرًا، وكرهت نفسي وأهلي، وفكَّرت في الانتحار مرارًا، لولا أن ربط الله على قلبي، فاعتصمت ببقايا إيماني ولزمت سجادتي ومصحفي، حتى عادت إليَّ سكينة روحي! والآن وحين بدأت جراح قلبي بالالتئام، وسكنت نفسي إلى حياتي الهادئة في منزلي، وبدأتُ ألقي بأفكاري السوداء على ظهر أوراقي ولوحاتي... لأتخفف من الهموم التي تغمر قلبي.

يأتون ليخبرونني بأنَّ مُسِنًّا آخر تقدَّم لخطبتي..

ووافق أبي! لأنَّها فرصتي الأخيرة لأمحو عار الطَّلاق عنّي وعن أُسرتي حدَّ وصفهم!

نظرتْ إليَّ بعينين حائرتين، أثقلهما بلل الدموع، وهي تقول:

- ماذا أفعل لأنجو بنفسي؟ ليس أمامي من حل إلا أن أمتنع عن الطعام والمنام حتى أموت!

فصحتُ بها:

- إذا كنتِ لا ترغبين في الزَّواج فارفضيه، لا توقّعي العقد، ولن يستطيع أحد إجبارك، لكن لا يصح أن تُعذّبي نفسك هكذا!

فقالت بيأسٍ مرير:

- لقد رفضتُّ فعلًا توقيعه، لكنَّهم زوَّروا توقيعي! فلم يبقَ لي من حل إلا أن أموت!

وجمت في مكاني لدقائق، وأنا أتأملها وهي تمسح دمعاتها وأُفكر بحل..

ثم ناديت الممرضة لتُدخل العجوز.. فدخلت مُسرعة تسألني:

– طمئنيني يا دكتورة، هل هي مجنونة حقًّا؟

فقلتُ:

– للأسف، هي مصابة بمتلازمة جنون حادَّة!

رمقتني الفتاة بنظرة متعجّبة مستنكِرة، فغمزتُ لها بعيني... وولولت العجوز ولطمت وجهها وصدرها، وندبت سُمعة أسرتها المنهارة، وخرجت من مكتبي كسيفة مهمومة تنادي زوجها..

وحينها صافحتني الفتاة وشدَّت على يدي بقوَّة، ورأيت لأول مرة منذ دخلت العيادة ابتسامتها الصافية النقيَّة.. ثم تبعت والدتها وخرجت!

ليتني أستطيع أن أعلم هل ستُزوَّج الفتاة، أم ينقذها الجنون؟!

على ضفَّة الانكسار

همست لي أمي:

– نامي، فالوقت تأخر!

أجبتها بهزَّة من رأسي. فهمست ثانية:

– لا تسمحي لنفسك بالغرق في دوَّامة الذكريات! حتى لو رحلتْ فالحياة ستستمر!

وتركتني وحيدة مع الأوراق وذهبت!

أتحسَّس الأوراق بيديّ، أستمع لحسيسها بين أناملي، وأضمُّها إلى صدري، أستنشق عطر اللحظات التي غادرت خلسة مني!

كنتُ على ضفَّة الانكسار يومًا وأنقذتني! منحتني أملًا أحيا به، منحتني القلم والورق!

قالت لي:

– ليست الكلمات هي كل ما يُقال ويُسمع.. كلا! فما قيمة كلمات تطمسها هبَّات الرياح، ونسيان البشر؟! الكلمات الحيَّة لا تُقال، بل تُسطَّر على الورق! تلك التي ننفخ فيها من أرواحنا نفخة الحياة، فتنتفض بصدق الإحساس والمشاعر! تلك التي تمنحنا حق الوجود في ذاكرة الزمن، تلك التي تنحتها قلوبنا على جدران الحياة، وسطور الورق!

لملمت أشلائي المبعثرة، مشاعري وأفكاري وكل أحلامي، وتناولت منها القلم والورق! ومن يومها وأنا أنحت معالم وجودي

على جدرانها، أقف على أطلال المعاني المنكسرة، أُرمّمها، وأبنيها، وأبعث فيها عبق الحياة؛ لتحيا وأحيا بها! ولتبقى أثرًا باقيًا لي عندما أرحل يومًا ما، كما رحلت هي وتركتني دون أن تبقي لي أيَّ أثر لها!

ستستمر الحياة.. ولكن دون بهجتها وإشراقها وجمالها! ستكون- من دونها- حياة باهتة دون ألوان، كلوحة من فحم نسي أن يلوّنها الرَّسام، كأرض قاحلة دون غدران، أو كنجم بعيد باهت دون بريق أو لمعان!

أصداء كلماتها ما برحت تتردَّد في زوايا عقلي.. وأطيافها تزورني يوميًّا عند المنام! وما زالت الصفحة أمامي بيضاء... وأنا أتوه في دياجير نفسي!

كنتُ وحدي عند النهر عندما رأتني، وسمعتني أُنشد للسَّمك بعض أشعاري! أحسست بحنان كفّها وهي تضعها على كتفي، وتقول: لو أنَّ الأسماك تفهم لغتنا لطربت لما تسمع! بحثت عن صوتي لأجيبها، وأعياني البحث دون أن أجد له أثراً! فاعتصمت بالصمت... فقالت:

- لا تخافي، أنا وأنت سواء! ولم أفهم حينها معنى (سواء)!، كنتُ على ضفَّة الانكسار، أوشك على الغرق، وكانت لي طوق النجاة! فكيف نكون سواءً؟!

أتصل بها في أي وقت أشاء لأُقيّد فكرة هبط وحيها عليَّ فجأة، أو أُدوّن شعرًا انسابت أنغامه في روحي للحظة، أو أحفظ خاطرة هتف بها قلبي في ساعة خلوة!، تضرب لي أمي الأرقام، وتناولني السَّمَّاعة، فينساب صوتها المرح في أُذني كموسيقى ناعمة: القلم بين يدي والأوراق أمامي! فأقول:

– اكتبي سريعًا قبل أن أنسى! فتكتب: (ليسَ لِلقُلُوبِ أَرضٌ تَنتَمِي إليهَا.. فَوَطَنُ القُلُوبِ قُلُوبٌ أُخرَى أَحَبَّتها وسَكَنتْ فِيهَا!) كان قلبي تائهًا في خريطة الحياة.. فكانت لي وطنًا!

أتتني يومًا أمام النهر ووضعت كتابًا بين يدي، وقالت:

– هنيئًا لكِ! يمّمت وجهي شطرها في تعجب، فضحكتْ قائلة:

– هذا ديوانك الأوَّل، تمت طباعته، وغدًا تحضرين حفل توقيعه!

فاضطربتُ وخِفتُ، وسألتها:

– كيف أحضره وأنا على هذه الحال؟

تساءلتْ باستنكار:

– أي حال؟

فهمستُ:

– مُقعدةٌ عمياء!

ضغطت بيديها على يديَّ، وقالت:

– المقعد منَّا من يعجز عن وضع أثر له في الحياة! وأنتِ لم تضعي أثرًا على تُربة الأيام- فقط- تحثوه الرياح، ويطمس معالمه الزمن! بل نحتِّه نحتًا على كهوف الأيام بجهد وصبر! ولستِ عمياء حقيقة، فقلبك بصير، وإلَّا مِن أين جرت أنهار الشّعر على لسانكِ؟! وكيف أزهرت براعم الإبداع بين يديكِ؟! لا تقلقي فكثير هم المقعدون والعميان حقيقة في حياتنا، وشاعرة وأديبة مثلك لن تكون حتمًا منهم!

كلماتها تلامس شِغاف قلبي، تعزف أفكارها النيّرة على أوتار مشاعري، وتطبع معانيها الدافئة على نبضات فؤادي الهلوعة قبلات حنونة، فتسكن إليها روحي وتطمئن! أقول:

- اكتبي قبل أن أنسى!

فتكتب:

(حَاوَلْتُ أَنْ أُمْسِكَ القَلَمَ لأَكْتُبَ عَنْكِ.. لِأَقُولَ أَنّي عَرَفتُكِ وفَهِمتُكِ وَغُصْتُ فِي أَعماقِ أَفكَارِك وَمَشَاعِرِكِ! لِأَحْكِيَ لِلعَالَمِ كَيفَ أَثَّرتِ بِي وَتَأَثَّرتُ بِكِ! لِأُخبرَ الجَمِيعَ مَن أَنتِ، وَلِأَيّ أَنوَاع الجَوَاهِرِ يَنتِمِي قَلبُكِ؟! فَعَجَزْتُ! كُنتِ أَكبَرَ مِنْ جَمِيعِ كَلِمَاتِي التِي تَعَلَّمتُهَا! وَمَعنَاكِ أَرفَعُ مِن كُلّ المعَانِي التِي عَرَفتُهَا حَتَّى الآنَ! رُبَّمَا يومًا مَا وَعِندَمَا تَرتَقِي ثَقَافَتِي وَلُغَتِي أَكثَرَ، أَستَطِيعُ أَنْ أَحتَوِيكِ فِي نَصٍّ يَلِيقُ بِكِ!)

رجوتها بعد حفل التوقيع أن تمكث معي لنحتفل معًا.. كنتُ أُمرّر يدي على جسدها لأتأكّد أنَّها نزعت حجابها.. عندما وقعت يدي على رأسها الأملس العاري! سألتها..؟ فضحكت وغيَّرت الموضوع!

وسألتُ أمي بعدها: فتجاهلتني! كأنَّما تآمرتا عليَّ لإخفاء الحقيقة!

الآن وقد رحلتْ من عالمنا، فهمتُ ما معنى (سواء)!!

لم تعد الأوراق أمامي بيضاء الآن.. فقد غمرها فيضان عينيّ.. وغرقت الأسطر الفارغة في عجزها المرير!

،،إِذَا كَانَتِ القُلُوبُ حِجَارَةً صَمَّاءَ..

فَلا تَعجَبْ أَنْ تُصبِحَ الدِّمَاءُ كَالمَاءِ!،،

سماح باديان

إرهاب

وقفَ تحتَ ظلِ شجرةٍ كبيرةٍ، يتأملُ ما حولهُ بهدوء...!

الساعةُ العاشرة:

شمس الضحى تلوحُ في السماء، تلوّن المباني بلونها الذهبيّ الساطع، وتنشرُ الظلال في كل مكان، أصوات العصافير المغردة تصدح في الأرجاء، متنقلةً من غصنٍ إلى آخر ناشرةً أجنحتها بأمان!

ارتاحت نفسه للسكينة التي تغمر المكان، تذكر أن زملاءه على مقاعد الكلية الآن.. نفض خيالهم عن رأسه، (لا يهم بعد الآن شيءٌ، روحي التي تمشي على الأرض، سترتقي قريبًا إلى السماء، ستحلّق بين أشجار الجِنان!)

الساعة العاشرة والنصف:

تعالت أصوات مجموعة من الصبية، قادمين للعب بالكرة، حتى طغت على صوت العصافير، وهديل الحمامات التي اتخذت من بعض الثغور في المباني الأثرية أعشاشًا لها!

ضحكاتُهم الطفولية أنعشتْ قلبهُ، فتبسَّم لمرآهم، وانتابهُ حنينٌ إلى ركل الكرة معهم، عشراتُ الأهداف سجَّلها قبلًا مع فريق مدرسته الثانوي.. عادتْ به أفكاره إلى واقعه الآن، هو ليس للعب هنا، أهدافه هذه المرة في مرمىً آخر! لم تعد أهدافُهُ ألعابًا تنتهي بالضحك والمرح..!

(أنا لا أحملُ همَّ فريقٍ يلعبُ، بل همَّ أمةٍ تتعب!)

اقتربَ بلطفٍ يطلبُ منهم اللعب في مكانٍ آخر:

- هذا المكانُ خَطِرٌ يا أولاد!

رفض الصبية الانصياع لكلامه، وأصروا على المكوث للعب هنا:

- هذا مكاننا، وكل يوم نلعب هنا، فلماذا اليوم تصرفنا؟

أدهشته كلماتهم!

لم يخبره أحد أنَّ أطفالًا يلعبون هنا كل يوم، هل غاب الأمر عنهم؟ أم تغافلوه في تخطيطهم؟!

شعر بالضيق ينتابه مع استمرار الصبية في العناد حتى فقد هدوء أعصابه، فصرخ في وجوههم مهدّدًا، وامتدتْ يدهُ تلْطُمُ أقربَهُم إليه، حتى فرُّوا من أمامهِ مذعورين..!

الساعة الحادية عشرة:

جبينهُ يتفصَّدُ بالعرق الغزير، دقَّات قلبه تضطرب، يتلفَّت بعصبيَّة مراقبًا المكان، الساحة خالية إلاَّ من الطيور المحلّقة هنا وهناك، تأمَّل البنايات الأثريَّة الماثلة أمامه، حجارتها القديمة صامدةٌ بثبات، تتحدى العصور التي مرَّت بها، تختصر قصَّة حياة أناسٍ عاشوا لقرونٍ خلَتْ هنا... رسمت سواعدهم ملامحَ الحياة في كلمتيّ العزم والأمل..!

التقطتْ حواسُّهُ المُتَّقِدة صوتَ طقطقةٍ منتظمةٍ على الأرض، حوَّل أنظارهُ إلى البوابة الحديديَّة، أصابعُ يديه تتقلَّصان في توتر، ودقَّات قلبه تزداد اضطرابًا، تعبثُ بمشاعرهِ المتخبّطة بين الخوف والإصرار!

(هل أقبلوا؟! أحان وقت الارتقاء والرَّحيل؟!)

دقائقُ تفصِلُهُ عن لحظات البداية الجديدة التي رُسِمت لحياتِهِ بريشةِ غيره... سيحملُ روحَهُ بين كفَّيه قريبًا، ويرفعها في سلَّم البطولة لترتقي عليه!

اقتربَ الصَّوت أكثر، تحفَّزت كل خلايا جسده للحظة الاندثار والتشرذم..!

وإذا بشيخ يظهر أمام الباب، متكئًا على عصاهُ، يمشي الهوينى! طقطقةُ عصاه على الأرض تُرسل لحنًا حزينًا، يرسُمُ في الذَّاكرة ملامح أنثويَّة، خطَّت تعابيرها يد السّنين، فرسمت أخاديد تتدفَّق منها أنهار الحب والحنان!

جلس الشَّيخ على المقعد الحجري تحت ظل إحدى الأشجار، ملامحه هو الآخر تحكي قصَّة إنسان حاز الدنيا يومًا بين يديه، ثم تردَّى متخليًا عن كل شيء..!

تنهدَ بعمقٍ، ووضع يده على صدره؛ ليوقف وجيف قلبه!

وسار محاولًا تصنُّع الهدوء في خطاه، حتى وقف بقامته الرفيعة أمام الشَّيخ، وقال:

- غادِر المكان الآن يا جدّي، فالمكان خطِر!

لم تتغير ملامح الشَّيخ الهادئة! فقط رفع عينيه ببطء، يتفرَّس في ملامحه الشابة.. وأسفرتْ شفتاه عن ابتسامة سعيدة، وكأنَّ ما تناهى إلى مسامعه لم يكن إلاَّ طُرْفة من زمن الشباب الغابر، أنعشت ذاكرته بالحنين لفترة منصرمة من حياته...

- اجلسْ يا ولدي لنتحدث.

- عليك أن تغادر حالًا، ألا تفهم؟ بقاؤك فيه خطر على حياتك!

انطلق الشَّيخ يتحدَّث بصوته الأجش غير آبه لما سمع!

كأنَّما آنسه وجود شخص يستمع إليه، فلم تُجدِ محاولاته شيئًا في إقناعه بالمغادرة..!

- لو تعلم يا ولدي كم أحببتُ هذا المكان قبلكم، وتمنَّيت أن أملكه وحدي! كنت في شبابي، كلَّما اعتراني اليأس أو مرت بي لحظات فشل، أهرع إلى هنا، أرتشف من عبق الحضارة نَفَسًا، يبعث في روحي الأمل..! أسلافنا بنوا وعَمَّروا، وبقي أثرهم لنا.. ونحن نبني ليبقى أثرنا لمن بعدنا!

تزاحمت الأفكارُ في عقله..

(وهذا منذ شبابه يأتي هنا! أغاب عن تخطيطهم- أيضًا- وجوده؟ أم عدُّوه تضحية لا بدَّ منها؟)

انسابت كلماتُ الشَّيخ من فمِهِ، لتنسكبَ على أسماعه، وتنفذ منها إلى لُبِّ قلبه!

- لقد قررتُ منذ زمنٍ مضى أن أكونَ حجرًا من حجارة هذه المعالم، وأثرًا من آثارها.

أفواجُ السُيَّاح التي تأتي تمرُّ بي كما تمرُّ بكلّ شيءٍ قديمٍ هنا..!

ترك القدماء أثرهم حجارة صمَّاء صامدة رغم السنين، أمَّا أثري أنا، فكلمات أقذفها في القلوب! أنا لا أبيعهم قِطَعًا أثريَّة كتذكار، أنا أمنحهم قطعة من روحي عبر بطاقة للاتّصال!

التفَّت كلمات الشَّيخ حول عقله، وهزَّت كيانه بعنف! صدى عباراته يتردَّد بداخله مئات المرَّات، يقتحم فراغات عقله وقلبه، ويطْرد حشوًا هُلاميًّا زائدًا، كان يطفو على سطحهما..!

تنهَّدَ الشيخ، وبدت مِسحةُ حزنٍ وأسفٍ ترتسمُ على ملامحه الهادئة، وهو يقول:

– ليتني كالآثار إن هَرِمَتْ جدَّدوا بناءها ورمَّموها، فعادت لتصمد مؤدّية دورها السياحيَّ سنين أخرى! فالإنسان إن هَرِم وانقضت لحظاته، مات وانتهت حياته الدنيا، ليبدأ حياة أخرى تحت التراب!

أنا يا ولدي تُوشك حياتي أن تنتهي، وروحي ستُرفع مِن أوحال الأرض إلى قدسيَّة السماء، ولكنَّ قِطَعها المتناثرة في أرواح كل من زاروا هذا المكان، من ثلاثين سنة، ستظل تنبض مع نبض قلوبهم، لتستمرَّ بالحياة، مشرقة بأنوار الإيمان والصلاة!

أنا سأرحل، ولكنَّ هذا المكان سيظل، وستستمرُّ أفواج السياح بالتوافد، فمن سيمنحهم مِن بعدي قطعة مِن روحه الفيَّاضة بأنوار الإيمان؟!

حدَّق الشيخ في وجهه بنظرات تحمل كلمات، لم تنطقها شفتاه، فتولَّت نقلها عيناه..!

خيَّمَ عليهِ الوجوم، واكتفى بالصمت..!

الساعة الحادية عشرة والنصف:

رنين هاتفه يرتفع بإصرار، دقَّت ساعة الصفر.. وصل فوج السُيَّاح، وانتشروا في المكان، أطفال ورجال ونساء، يتقدَّمهم مرشد سياحيّ.

تعلو الابتسامات وجوههم تارة، وتصبغها الدهشة والإعجاب تارة أخرى، وشعور بالعظمة يُخالط شِغافَ قلوبهم، ترويهِ عنهم ملامحُ الانبهار على صفحات الوجوه!

بينما انتشر الأطفال حول المكان في عبث بريء، غير آبهين لشيء مما يشدُّ انتباه آبائهم، وصوت ضحكاتهم يرجُّ الآثار رجًّا، يمتزج بتغريد العصافير وهديل الحمام، فيصنع سيمفونية حياة تعجز عن عزفها يد أمهر موسيقيّ أو فنَّان!

تخنُقُه اللحظات القصيرة المتبقية، دقَّات قلبِهِ تتسارع كبندول ساعة يُحصي ثواني الحياة الباقية، تخطفُهُ ذكرياتٌ قديمة، تهيمُ به في فضاءاتٍ روحيَّةٍ متنوعة... تمرُّ الآيات التي حفظها من القرآن أمامه في شريط:]وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ[،]وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ[،]كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيْدِ]...

مدَّ يدهُ يتحسَّسُ الحزام المُثبَّت على خاصرته، وصراعٌ عنيفٌ تدور أحداثه بين عقله وقلبه...!

مرَّت الدقائقُ ببطءٍ وتثاقل...

الساعة الثانية تمامًا:

أقبلَ طفلٌ صغير إلى منطقة الآثار ليلعبَ بدراجته، شدَّ انتباهه صوتُ رنينٍ متواصل، بحثَ حوْلَه حتى وَجَدَ هاتفًا مُلقىً في أحد براميل القمامة، أخذهُ وعاد يركض مسرورًا إلى منزله..

راقبَهُ من بعيدٍ بصمت... ثم عاد إلى منزله، مسرورًا هو الآخر ببطاقة صغيرة أهداها إليه الشيخ، مكتوب فيها:

إذا أردتَ أنْ تكتشفَ الإسلام، اتصلْ على الرقمِ التالي............

غَزْل البنات

أطلَّ المساء مغلفًا الكون بستاره الأسود المهيب، الشوارع مكتظة بالناس، مصابيحها المعلقة تنشر ضوءًا ينكأ في نفسي جراحًا قديمة، أبتْ أن تندمل...!

يذكّرني المساء بأمسيات شتوية راقية، على طاولات مطعم (الشرق) الفاخرة في نهاية كل أسبوع، بعد جولة قصيرة في السوق الشعبي في المدينة القديمة، وأنا أتأبَّط بيدي اليمنى ذراع زوجي بدلال، أرتجي الدفء بقربه من لفحات الهواء الباردة التي تجمد الأوصال، لولا معاطف الفرو الباريسيَّة الثمينة التي نرتديها، بينما تُمسك يدي الأخرى بطفلتي الصغيرة خوفَ أن تضيع بين الزحام!

لحظات جميلة تاهت مني بين عجلة الأحداث ومرور الزمن!

أقفُ الآن على بوَّابة سوق سياحيّ في وضع مختلف، ومكان آخر، أراقب في أمل أفواج النَّاس الوافدين في تزايد، تتأبَّط النساء أيدي أزواجهن، بينما يتقافز الصغار أمام محل الألعاب الكبير في واجهة السوق، لطالما شدَّ الأطفال بروعة ألعابه، وألوانها الجذَّابة!

بالقرب مني رجل عجوز على كرسيّ متحرك، ينادي في الداخلين إلى السوق:

– (ساعدوا الشيخ العاجز المعاق، أعطوني مما أعطاكم الله)

صوته المجلجل يلفت الأنظار إليه، ومنظر قدمه المقطوعة يُفطّر القلوب الرقيقة، فتمتدُّ إليه الأيدي ببعض قطع النقود المعدنيَّة!

انتبهتُ على الصراخ المزعج لأحد الأطفال، وهو يطلب من والديه شراء حلوى غزل البنات، ترجوه أمُّه أن يهدأ دون فائدة، فاضطرت أن تشتري له ما يريد ثمنًا لسكوته!

وَقَفَتْ بالقرب منهم، ترقبهم بصمت...

حاولتُ أن أتشاغل عنها، وأهتمَّ بما جئتُ لأجله...

سمعتُ صوت أنفاسها الصغيرة بالقرب مني، همستْ بأذني في رجاء:

- (أُريد حلوى غزل البنات يا أمي)

ليتَ القذيفة التي أخذت زوجي وبيتي... أخذتنا معهما!

تنتابني تلك الخواطر كلَّما طلبتْ مني شيئًا وعجزت عن تحقيقه لها، فما يلبث أن يدفعها إيماني العميق بأنَّ مع العسر يسرًا، والحياة ألم وأمل، ولا بد أن يأتي اليوم الذي سيولد فيه من رحم الألم الأمل!

فهمستُ بدوري لها:

- (سأشتريها لكِ فيما بعد).

رأيتُ ابتسامتها البريئة تزيّن وجهها الصافي، وهي تركض إلى واجهة محل الألعاب، وتقبع هناك -كعادتها- تتأمَّل دُميتها المفضلة، وتنتظر أن أحقّق لها أمنيتها الصغيرة في تناول غزل البنات!

انتهزتُ فرصة غفلتها عني، لأعُدَّ ما جمعتُ من مال... لم يكن المبلغ كافيًا حتى للعَشاء!

بالأمس القريب ما كنتُ أردُّ لها طلبًا... أتُراها ستكرهني إن منعتها اليوم ما تريد؟!

عقارب السَّاعة تجري مسرعة، تطوي المساء كقطعة ورق قديمة، لا بد أن تُطوى لتُرمى وتنتهي!

(قف يا زمن..! فما زال عندي في المساء رجاء!)

وما زال صدى صوت الشيخ المعاق يتردَّد فيما حول بوَّابة السوق، مستجديًا عطف الناس...

(لا جدوى من الجلوس والانتظار!)

قمتُ من مكاني وتوجَّهتُ إلى أقرب عائلة منّي، تسبقني حروف لهجتي لتعرّف بي...

نعم أنا لاجئة هنا! وقد كان لي موطنٌ، عِشتُ فيه أجمل أيامي.. تقلَّبتُ على أرضه في النعيم والترف.. حتى هاجت عليه الفتن.. فقذفتنا، كما تقذف الأمواج العاتية قطع الجيفة على سطحها، وتلقيها على السَّواحل!

أنا لاجئة إليكم، من فيضان الطُّغيان الذي غمر أرضنا، فأحالها بوارًا، بعد أن كانت عامرة مزدانة بالخُضرة... أنا باختصار أطلب عونكم يا إخوة، فساعدوا أختكم اللاجئة..!

تجاهلتني الفتيات، وذابت كلماتي وسط ضحكاتهن العابثة، وهتفت إحدى النساء بضيق، وكأنَّما ملَّت من كثرة ترديدي للكلام:

- (ربنا يرزقك يا بنتي)

وعلَّق شابٌّ كان مارًّا مع زملائه:

- (لقد كثروا!)

وأجابه آخر:

- (إنَّهم يشوّهون منظر السوق، يجب أن يُمنعوا من الجلوس هنا!).

لمحتني من أمام محل الألعاب، وأنا أقترب من إحدى العائلات.. فركضت إليّ:

- (أريد غزل البنات يا أمي)

تركتُها تتبعني، وأنا أتحرَّك على طول بوَّابة السوق الكبيرة من أسرة إلى أخرى، أَلقى إليَّ طفل بقطعة نقود صغيرة، ثمَّ ركض إلى أمّه سعيدًا بإنجازه! (لا تسعد يا صغيري، فلن تُغني عنّي قطعتُك هذه شيئًا!)

نهرني حارس البوَّابة، وأشار إليَّ بالخروج من السوق؛ كي لا أُزعج الزبائن! تجاهلتُه، وأسرعتُ إلى الأسرة التي كانت تهِمُّ بمغادرة السوق، أغرتني الأكياس المملوءة في أيديهم، فتأمَّلتُ منهم بعض العطاء، وما زلتُ أتبعهم كالظل، مردَّدة كلماتي على آذانهم في رجاء:

- (ساعدوا أختكم اللاجئة!)

وقفتُ أمام نافذة سيارتهم، ويدي التي ما كنتُ أمدُّها إلَّا لأتحسَّس قماش الملابس الفاخرة التي أشتريها.. تمتدُّ منها إليهم..!

تعلَّقت عينايَ بيديها، وهي تفتح حقيبتها..

(أخيرًا سأشتري العَشاء!، وسأُحقق لطفلتي أمنيتها في تناول غزل البنات!)..

وعلى حين غفلة منّي، جاءتني دفعة قويَّة من حارس البوَّابة، كادت أن تُلقي بي أرضًا:

– (قلتُ لك لا تزعجي الزَّبائن، قفي في طرف البوابة فقط، وإلَّا طردتُكِ نهائيًّا)

سحبني بعنف إلى طرف البوَّابة، ثم استدار عائدًا إلى مكانه، وانطلقت السيارة مبتعدة، حاملة معها حلمًا لم يتم.!

وَقَفَتْ أمامي، وعيناها مبلَّلتان بالدموع:

– (أمي.. سيذهب بائع غزل البنات!)

ماذا أفعل لكِ يا صغيرتي؟ بعتُ كبريائي لأجل إطعامك، مددتُ يدي للناس، لأطلب لكِ الحياة..!

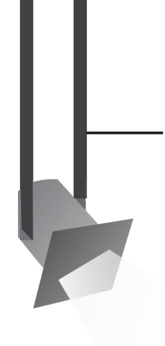
طَمَسَتْ قسوة الشَّارع معالم الجمال في وجهي، فلم يبقَ للكريمات التي كنت أطلبها من أرقى الماركات أثرٌ يُرى، وقد لوَّحَت الشمس لونه الأبيض، فصار كقطعة من هذا المساء!

وما زلتُ أتخبَّطُ بين غريزة الأمومة، وغريزة البقاء... أأشتري لها غزل البنات وننام دون عشاء؟!!

وفي غمرة حيرتي ويأسي، سمعتُ صوت الشيخ المعاق ينادي طفلتي:

– (تعالي يا صغيرة)

وأعطاها ثمن غزل البنات!!



تلميذي القبيلي

مررتُ بإصبعي على الشاشة المضيئة أمامي، أقلب آخر الأخبار على صفحتي في (الفيسبوك)، وأقرأ ما كتبته أنامل أصدقائي، ومواقع الأخبار التي أتابعها أحيانًا...

كل الصور حالمة، تختال في ألوانها الزاهية، تمر أمام أنظاري من دون أن تحرّك فيَّ ساكنًا، أو أن تثير في نفسي أي اهتمام، إلا صورة واحدة، انتصبت فجأة أمامي بقوة، وجثمت على قلبي، وكأنها يدُ غول كبير شقَّت عن صدري، واعتصرت قلبي بقبضتها القوية، قبل أن تنبش بعنف أحداثًا قبرتها في ذاكرتي منذ فترة طويلة!!

أغلقتُ الهاتف، ودفنت نفسي في السرير، ملقيًا البطانية على وجهي، وأغمضتُ عينيَّ لأنام، علّي أتخلص من هول الذكرى التي أحيتها الصورة بقوة في عقلي، وإذا بها تقتحم منامي، وتعيدني – رغمًا عني– لماضٍ طَمَرتُهُ في نفسي، وأهلتُ عليه الكثير من الأحداث؛ لأنساه، ويختفي إلى الأبد من حياتي!

كان أمامي في الصورة، ليس كما رأيته أول مرة، واقفًا بكبرياء، بقميصه الأبيض المصْفَرّ من كثرة ما غُسِل ولُبِس خلال السنوات الماضية، وسرواله البني المهترئ، و(صندله) القديم المقطوع حزام إصبعه!

سألته حينها عن حذائه؟

فأجابني بثقة:

- أنا قبيليٌّ يا أستاذ، والقبيليٌّ ما يلبس الأحذية!

في عينيه العسليتين بريق خاص، تتهادى بين أطراف أجفانه كلمات، عجزت يومها عن قراءتها!

كان يومي الأول في مدرسة القرية، قادمًا من العاصمة، وكان هذا تلميذي (حسين).

ثم رأيته مرة أخرى، بين طرقات سوق القرية الأسبوعي، يتقافز كقط صغير، ناكس الرأس، منكوش الشعر، حاشرًا جسده النحيل كعود قصب يابس طلته الشمس بطبقة نحاسية صفراء، بين عربات باعة الطماطم والبطاطس، ومفارش الرُّمان المنتشرة في أوج موسم زراعته في القرية، بيده اليسرى كيس كبير يجرُّه خلفه حيثما انحشر!

غرقتُ في تأمله، متناسيًا غرضي من زيارة السوق.. لمحتُ يده اليمني تنخفض، ملتقطة أشياء من الأرض، يدسُّها مباشرة في كيسه، يتحرك في كل الاتجاهات كصياد يطارد فريسة هاربة، أبى إلا أن يعود بها!، تواريت عن أنظاره، خشية أن يخجل عندما يرى معلمه الجديد يكتشف أسراره، وهو القبيلي صاحب الكبرياء!

لكنه قال لي، عندما رآني أراقبه مرة أخرى في السوق:

- أنا أعمل تاجر خردوات يا أستاذ (أبو اللغة العربية).

كان يجمع علب البلاستيك الفارغة، والعلب المعدنية، وأسلاك الكهرباء، والقطع النحاسية والحديدية... وكل ما يمكن أن يُباع، ليكتسب منه (لقمة شريفة)، حد وصفه!

لم يخفتْ بريق عينيه لحظة واحدة، حتى وهو يتهجأ عبارة (أنا طفل سعيد)، ويعجز عن قراءتها!

راودني – حينها– إحساس بأن الكلمات صعبة عليه، لانفصالها عن واقعه، بيد أنه لم يكن يُحسن القراءة والكتابة، كما تبين لي لاحقًا!

ثابرت لأجعله يحب اللغة، كوني (أباها)، كما كان يطلق عليَّ تلاميذي في المدرسة، فلم أفلح إلا في جعله يتهجأ أسرع مما كان عليه!

أراه يسحب كيسه الفارغ في الطرقات بعد المدرسة، وأراه يحمله على كتفيه ممتلئًا عند الغروب، تخط مؤخرة الكيس المثقلة خطًّا متعرّجًا على الأرض، تبعًا لمشيته المتعثرة، متطاولة بحجمها وطولها على قامته النحيلة الصغيرة... وأراه الآن على شاشتي مختلفًا..! ممددًا فوق كيس يشبه إلى حد بعيد كيس تجارته، وخطان أحمران يمران على وجهه، الأول من طرف شفته إلى ذقنه، والآخر من ثقب صغير في جبينه ممتدًا إلى عنقه، وبجانبه تمددت بندقيته الكبيرة!. أردتُ أن أرى بريق عينيه، لكنهما كانتا مغمضتين!

عندما رأيته آخر مرة، كانت عيناه طافئتين دون بريق، واقفًا بقميصه الأبيض المصفرّ، وسرواله البني المهترئ، ممسكًا ببندقية كبيرة، وقد وضع مؤخرتها على الأرض، وأمسك بطرفها الأعلى، فبدا بجانبها كقزم، وقد تطاولت بقامتها المتعجرفة على قامته الصغيرة!

كنت قبلها ألقي درسًا في المدرسة، عندما قال لي تلميذ نبيه، لاحظ سؤالي اليوميّ في الأسبوع الماضي عن تغيّب «حسين»، فأدرك اهتمامي الخاص به:

- «حسين» يا أستاذ جندوه في الحرب!

- جندوه؟!

بدوت كالأبله وأنا أردد باستغراب كلمة (جندوه!)، وكأنها كلمة جديدة، أضيفت إلى قواميس اللغة حديثًا، فلم أفقه معناها! فأضاف التلميذ متحذلقًا، بأنه يعرف معنى كلمة لا يعرفها (أبو اللغة العربية) نفسه:

- يعني أعطوه سلاحًا، وأخذوه يقاتل في الجنوب.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أخوض في غمار طرقات القرية الموحلة، بعد أن غزتها الأمطار القوية، المصاحبة للبروق والرعود منذ أسبوع، فاستقبلتها الأرض بصدر رحب، كأم تتحمل بصبر صراخ طفلها العنيد، ثم تمتص غضبه ودموعه بضمة حانية إلى أحضانها!

تركت صفي خلفي، وعلى السبورة عنوان الدرس الذي لم أشرحه: (بالعلم نبني الأوطان!)، وأسرعت راكضًا إلى منزله، الذي أحفظ الدرب السالك إليه تمامًا، خلف أسوار مزارع سيد القرية...

كان أمام باب منزله، وبجانبه أمه العجوز، وإخوانه الخمسة، يختال في مشيته أمامهم، جارًّا حمله الحديدي الثقيل بعزم.. وقفت أمامه لاهثًا، فتوقف، وأسند بندقيته على الأرض، وسألني باستغراب:

- أستاذ (أبو اللغة العربية)! لم أتيت؟!

اجتاحني سؤاله كفيضان يعبث بالأغصان النامية فيقتلعها، ويجرفها في طريقه، وقد كان غصنًا ناميًا أتعهده بصبر، فاجتاحني فيضان الحرب الأهلية، ليجرفه من طريقي إلى طريقها!

(لم أتيت؟!)، أيهمني أمر طالب مهمل، قال لي يومًا بفخر (أنا قبيلي)؟!، أم تراها نظرات عينيه التي تحمل أسرارًا لم تقرأها عيناي بعد، ساقتني للاهتمام به دون غيره؟!

أم هو الشقاء الذي جمعنا في ظله، وحرمنا الإحساس بالطفولة معًا!، إذ كنت يتيما مثله، مات أبي، وتركني أعتني بأسرة كبيرة، ثلاث أخوات صغيرات، وأم ثكلى، وجدة مريضة.. سلكت دروب الشقاء والعمل صغيرًا، لأطعم الأفواه الجائعة المنتظرة في المنزل، تارة أعمل حمّالًا في المرفأ، وتارة أغرس أقدامي في الأرض الطينية الخصبة، أبذر وأبتل مع مزارعي القرى المجاورة لمدينتنا، وأحيانًا أطوف الأسواق بكيسي الكبير، أعمل كما قال تلميذي القبيلي يومًا (تاجر خردوات!).

عندما أقف أمامه، أرى نفسي متوارية خلف جسده، كما يتوارى البدر خلف الغيوم في الأيام الماطرة، والفرق بيني وبينه، أني أخذت نصيبي من التعليم بقوة، فقد رأيته الخلاص، والباب الذي سأفتحه لأخرج من عالم الشقاء إلى الرفاهية، هذه الكلمات كانت في الأصل الميراث الذي أورثنيه والدي، بينما أورثه والده (القَبْيَلة)!

سألته عن السلاح الذي يحمله، فقال:

- أنا سأقاتل!

- ومَن ستقاتل؟

رأيت في عينيه المنطفئتين ذهولًا ممزوجًا بالحيرة، وكأنما فَجَأَهُ السؤال، أو كأنما هو شيء بدهي لا يُسأل عنه!، وأجابني بتردد، بعد فترة من التفكير، بدت واضحة على معالم عينيه، التي بدأتُ أجيد قراءة لغتها السرية:

- الأعداء.. أقاتل أعداء الدين والوطن.

- ومن هم؟

لم يُحِرْ جوابًا..!، أدركتُ- حينها- أنه لم يُلقَّنْ جيدًا الكلمات التي تُلقَّنُ عادة للمجندين، عن مغزى الحرب، وماهية الأعداء. وليس ذنبه أنه لم يستفسر أكثر، فليس إلا طفلًا، لم يكمل بعد عامه الثاني عشر!!

فحوَّلت سؤالي إلى أمه التي انتحت جانبًا، تنقل نظراتها بيننا في صمت:

- لمَ ترسلينه إلى الموت؟!

- لا أرسله للموت، وإنما أرسله ليدافع عنا!

- يدافع عنا ضد مَن؟

ترددت قليلًا قبل أن تقول:

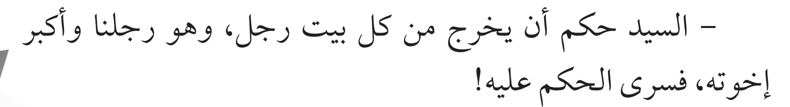
- الأعداء.. أعداء الدين والوطن!

(الأعداء!) أهذه هي الكلمة الوحيدة التي لُقِّنوها؟، أيعقل أن تقتنع أم بإرسال طفلها لساحة الحرب، من أجل هذه الكلمة الفضفاضة، التي هي كبقعة عمياء في كون مضيء؟!

ولم تلبث حيرتي طويلًا!، إذ جاءني الجواب في كلماتها التالية، كسيل من الطلقات المتتابعة، ربما كانت أول وقود الحرب!

- لقد دفعوا لنا ديته، وأعطوه (ربطة فلوس) ليعيش بها!

كانت تتكلم بعبارات متتابعة، من دون أن تتيح لي فرصة للرد، وكأنما أرادت أن تخفي نبضات قلبها الهلوعة على فلذة كبدها خلف كلماتها الواثقة، فنبضت كلماتها بالهلع رغمًا عنها، وانبثقت الحروف والكلمات متقطعة مع أنفاسها، وهي تقول:



– السيد حكم أن يخرج من كل بيت رجل، وهو رجلنا وأكبر إخوته، فسرى الحكم عليه!

–..............................

– يقاتل الأعداء، ويعود لنا بالخير إن شاء الله.

كل كلمة قلتها بعد ذلك، ذهبت أدراج الرياح، وتلاشت، بعد اصطدامها بكلماته المكررة لكل سؤال أسوقه له:

– أنا قبيليٌّ يا أستاذ.. والقبيليُّ ما يخاف الحرب!

فلم تفلح محاولاتي في ثنيه عن الذهاب، فقد كان منتشيًا بإحساس الرجولة المبكرة، غير مدرك لما ينتظره، وخلف تلك العبارة المقيتة: (أنا قبيلي يا أستاذ)، طوى صفحة طفولته!

أما أمه، فتوارت خلف باب دارها، ولم أرها أو أسمع لها صوتًا، حتى عندما جاءت السيارة وانتزعته من بين أنظاري إليها، ولم تستطع عبارة (أنا قبيلي يا أستاذ) أن تخفي البريق الذي لمع لوهلة في عينيه، عندما أدارها للمرة الأخيرة ناحية منزله وإخوته – قبل أن تبتعد السيارة – وانحدر برفق على وجنته في صورة دمعة، حمَّلها كل ما تبقى له من براءة!!

وكان هذا آخر عهدي به، إلى أن انتصبتْ صورته أمامي الآن في الشاشة من أحد مواقع الأخبار، بخطين أحمرين يخترقان وجهه، وسلاحه الكبير ممددًا بجانبه بعجز، واقتحم الصورة بعشوائية في طرفها الأيمن، على حين غفلة من المصور.. (صندل) قديم بحزام مقطوع!

قارب النَّجاة

جرَّ القارب ببطء وصعوبة على رمال الساحل الناعمة، أضواء قمر منتصف الشهر تتلألأ على صفحة الماء الهادرة، ورياح أكتوبر تهبُّ بقوة، تُلاطم أمواج البحر بعضها ببعض، في معركة كونية هائلة!

قطرات عرقه تبرق تحت أشعة القمر الباهتة، وكأنها حبات لؤلؤ أنتجها جبينه الأسمر، فانحدرت بمهلٍ متدحرجة على صفحة وجهه، قبل أن تسقط غائصة في أعماق الرمل، ككنز أسطوري مفقود، لا يمكن أن تمتد لتفسد بريقه يد أي بشر!

طالما جرَّ القارب مع والده في أَمْسِيَة كثيرة، في رحلاتهم اليومية لصيد السمك، ومع لحظات الغروب غالبًا، حين تزحف الشمس نحو مستقرّها الليلي، متدثّرة بلحاف أحمر بلون الدم، خاطته يد الشفق من أشعتها، لتزفُّ الشمس في رحلتها نحو الغروب!

لكنَّه الآن يجرُّه في منتصف الليل، على عجل، بعد فترة طويلة من بقائه في الكوخ، الكوخ الذي بناه والده بنفسه، قطعة قطعة، بباب من صفيحة معدنية، صنعها من ثلاث علب من الحجم الكبير، طرقها بعزم يوميًّا، إلى أن لانت واستكانت بين يديه، فألصق بعضها ببعض، ثم ثبَّتها كباب!، وكلُّ يوم يأتي بقطعة من كرتون، أو خشبة صغيرة، وجدها في ركن حارة مرَّ بها، ليسدَّ بها فراغًا، أو يردم بها خرقًا في جدران الكوخ!، ومن حولهم تنتشر أكواخ الصيادين، الشبيهة حدَّ

التماثل بكوخهم، فتبدو وكأنَّها لوحةٌ رسمها فنان فاشل، لم يستطعْ أن يبدع في الأكواخ أكثر مما فعل، فتركها مشوَّهة على الساحل، لعلَّها تستمد بعض الجمال من منظر البحر الساحر!

استقرَّ القارب على أمواج البحر الصغيرة المتكسّرة على الرمال، تناول المصباح الزيتي المسرج، وعلَّقه على عمود خشبي في طرف القارب، فارتسمت ظلالها على سطحه القديم، كأشباح سوداء هائمة، مطموسة الملامح، تتراقص على مسرح الحياة الليلية، التي فقدت هدوءها منذ قدوم الاحتلال!

حدث كل شيء قبل شهر...

كان متمددًا على فراشه في المنزل، وفي يده قطعة كرتون، يُروّح بها عن نفسه، مخففًا الحرَّ الذي يشعر به، مع انقطاع الكهرباء عن المدينة..

أصوات الرصاص والقذائف تدوي من عدة جهات، كان قد نهى والده وإخوته عن مغادرة المنزل، بعد تمركُز القنَّاصة على المباني المطلَّة على الشارع الرئيسي، على بعد شارعين من منزلهم، اعتاد أن تجد كلماته طريقها دومًا إلى أسماع والده، فهو ابنه الأكبر، و(الجامعيُّ) كما يحلو لأبيه أن يتفاخر به كلَّما تسامر مع زملائه الصيادين.. ولكنَّه أصرَّ هذه المرة على رأيه، ملقيًا بتحذيره عرض الحائط:

- (الموج عالٍ، والرصاص كثيف، ونحن نحتاجك، فلا تحشر نفسك في مشاكل الناس!)

ولكنَّ شيئًا ما تغيَّر في أبيه، وتغيَّر في الجميع..!، حتَّى أمُّه التي كانت تُولول، كلَّما انزلق كأس من بين يديها مرتطمًا بالأرض، لم يعد يُسمع لها

صوت!، وكأنَّما تلاشى صوتها، وأصيبت بالخرس!، لولا أنَّها ما زالت تُتَمتِم بالتسبيح والدعاء، عقِبَ كلّ صلاة، أكثر بكثير مما كانت تفعل من قبل، فيطمئنُّ قلبهُ إلى أنَّ حنجرتها ما زالت تدبُّ ببقايا صوت!

على صراخ (أم مريم) وعويلها.. هبَّ الجميع من منازلهم يستطلعون الخبر...

كانت مريم ذات الخمس سنوات، قابعة في حِجر أمها، ورصاصة تخترق خدَّها الأيمن، وجرحها ينزف بغزارة، ملطّخًا ملابسها، وأمها، والشارع بالدماء.!.

وقع الحادث بعد الغروب، عندما تسلَّلت رصاصة القنَّاص بخبث عبر النافذة، لتسقط مريم -بين ألعابها ودُمَاها- مضرَّجة بالدماء، فأسعفها أحد الجيران بسيارته، التي استمرت تدور في شوارع المدينة، باحثة عن منفذ آمن تسلكه إلى المشفى، دون فائدة..! ففي كل مرَّة تنهال عليهم رصاصات القنَّاصة دون رحمة، تسكب حقدها الدفين على كلّ مارّ، محوّلة الشوارع إلى مقابر، بعد أن شقَّ على الأهالي دفن من مات فيها، خوفًا على حياتهم، فتُركت الجثث تسفُّها الرياح، وتنهشها الكلاب الضالَّة!

وأخيرًا أُعيدت مريم إلى منزلها كما أُخذت!

هزَّ أحد الجيران رأسه بيأس، وقال:

- لا فائدة.. لقد نزفتْ كثيرًا، وسيستمر النزيف، ولن نستطيع إسعافها!.

وقال آخر:

- مريم ضحية أخرى من ضحايانا..!

وفي تلك اللحظات العصيبة، خطرت في رأس أبيه فكرة جنونية، أسرع يهتف بها في الحاضرين:

- هناك أمل.. البحر!

وهكذا كان...

استمرَّ يدفع القارب، حتى بدأ يتهادى على أمواج البحر، بعيدًا قليلًا عن الساحل، وأخذ يشدُّ حبل (الموتور) مرَّتين أو ثلاث بكل قوَّته حتى دار.. عندها التفت إلى أمّه وإخوته الصغار، كان الخوف والقلق يسكن ملامحهم! تنهَّد بعمق قائلًا:

- هذا أفضل خِيار!

لمحَ دمعة حارَّة انحدرت ببطء على خد أمّه، وسمِعَ نشيجها المكتوم، فأشاح بوجهه بعيدًا، وراح ينقل الأغراض على سطح القارب...

صرخت به في الصباح، حين أبلغها الخبر:

- أنترك أرضنا وديارنا، ونرحل؟!

- بل ننزح يا أمي إلى أجل!

- أَنَفِرُّ من القدر؟!

- بل نَفِرُّ من القدر إلى القدر!

يعلم أنها ترغب في البقاء إلى جواره، أن تزور قبره يوميًّا، وتُسوّي بيديها تربته وهي تقرأ الفاتحة، وتسقي الغِراس التي زرعتها فوقه، وتتعهَّدها بالاهتمام حتى تنمو وتكبر..! ولكنه لم يرد أن يفقدها كما فقده!

فاضطر أن يأخذها قسرًا..!

رأى القوارب، والعَبَّارات من حولهِ بدأت بالإبحار... فهتفَ بهم:

- هيا...

شعرَ بالرَّاحة تغمره، وهو يرى الساحل يتلاشى في الأفقِ البعيد، ويبتلعه الظلام.. ابتسمَ بمرحٍ محاولًا تبديد مخاوفِ أمّه وإخوته، وهو يقول:

- مالكم؟! ابتسموا!، تخلَّصنا أخيرًا من ضجيجِ الحرب، ورُعبِ الموت!

ولم يبتسم أحد..!

أشرق ضوءٌ ساطعٌ فوق رؤوسهم فجأة، نظروا إلى الأعلى، ضاقت حدقاتهم لوَهْلة وهم يتأمَّلون الجسم المضيء فوقهم.. ابتسم أصغر الأطفال بفرحٍ أخيرًا...

وفي الوهلةِ الأخرى، لم يعد أحدهم يشعر بشيء...! واحتضنَ البحرُ القاربَ في قعره بصمت!

مجهول

كان يسير بعصبيَّة في أرجاء المنزل، يشبك ذراعيه أحيانًا، ويفرقع أصابعه في أحيان أخرى، صوت أنينها يرتفع، ويتحوَّل تدريجيًّا إلى صرخات مكتومة.. هرع إلى غرفتها لاهثًا..!

كانت متكوّمة على نفسها في السرير، تُمسك عارضته بقوة بإحدى يديها، وتعتصر ثوبها بالأخرى، قدماها المتورمتان تخيفه، وصوت أنينها المتزايد ينتزع أنفاسه!

هرول إلى الباب راكضًا، فجاءه صوتها المتعب من بعيد، وكأنَّما ينبعث صداهُ من أعماق كهوف الألم:

- أرجوك لا تخرج الآن!

تجاهل رجاءها، وخرج...

إحساسه بالخوف عليها، طغى على إحساسه بالخوف على نفسه، فقرَّر الخروج والمجازفة، على المكوث عاجزًا تحت سياط تأنيب الضمير. أسبوع مضى على دخول زوجته في شهرها التاسع من الحمل، كان ينتظر هذه اللحظة بلهفة ويعدُّ لها عدَّتها.. إلاَّ أنَّ الظروف قد تغيَّرت خلال هذا الأسبوع، وتغيَّرت معها كلُّ الإعدادات التي أعدَّها، اعتذرت طبيبة العائلة عن الحضور، لتعذُّر ذلك بالنسبة لها، ولم تُفلح اتصالاته بالمشفى في شيء، وليس أمامه إلاَّ أن يتصرف بنفسه في إيجاد وسيلة نقل لإسعافها!

أصوات الانفجارات ترجُّ العمارة رجًّا، ووابل من الرصاص يُمطر الأرض، ويغمرها بأغلفته الفارغة، دقَّات قلبه تتسارع، وأنفاسه بالكاد يلتقطها.. تستَّر خلف سور أحد المنازل يراقب المكان، علَّه يجد سيارة مارَّة، فيوقفها، لكن خاب أمله، فالطرقات خالية، ووقت الفجر لا يساعده على إيجاد أحد، صورة زوجته المتألمة تقتحم تفكيره، وتدفعه للمضي قُدمًا في الشوارع الخالية!، وما زالت أصوات الانفجارات تُسمع من مختلف الجهات...!

تقدم ناحية أحد الشوارع الرئيسية بحذر، دوى صوت هائل طغى على أصوات الانفجارات!، انبطح على الأرض، وأخفى رأسه بين يديه، دقائق مرت قبل أن يلمح ظل الطائرة الحربيَّة يمرُّ من فوقه، وفجأة.. دوّى انفجار هائل!

انهارت إحدى البنايات المواجهة للشارع الذي هو فيه، أرتال من التراب غلَّفت جسده النحيل، بينما غطَّت سحائب الدخان صفحة السماء، وسمع أصوات زجاج نوافذ المنازل الأخرى تتكسَّر، وتتناثر قِطعُها على الأرض!

استمرَّ على حالته هذه عدَّة دقائق، رغم أن السكون قد عمَّ المكان!، قبل أن ينهض، نافضًا التراب عن ملابسه وشعره، ملتقطًا أنفاسه بصعوبة، وما إن رفع رأسه حتى تسمَّرت قدماه، ودبَّ الرعب في قلبه، شعر بجفاف شديد في حلقه، وثقل لسانه، وهو يبصر الطقم العسكري الذي تقدم ناحيته، وأشهر ركابه أسلحتهم عليه!

وفي غمرة إحساسه باليأس، لمح العلم المعلَّق على الطقم، فأدرك أنَّهم من دولته، فانفرجت أساريره، وعادت إليه شجاعته، فانطلق لسانه، وحكى لهم كل شيء...

دقائق مضت.. قبل أن تكون زوجته معه على الطقم الذي شق طريقه بسرعة باتجاه المشفى، وما زالت أصوات الرصاص تنهال عليهم من كل مكان.. احتضن زوجته بين يديه، محاولًا تبديد خوفها:

- لا تقلقي، فهذا الطقم العسكري مضاد للرصاص!

بدأ صوت دوي الطائرة يقترب، ليطغى على كل الأصوات الأخرى. ضم زوجته إليه بقوَّة، وفي اللحظة الأخرى، دوى انفجار عنيف... ثم هدأ كل شيء، وغلَّف المكان السكون!

فتحت عينيها ببطءٍ وصعوبة، كانت على سرير أبيض، في غرفة هادئة وواسعة، وأنبوب تنفس متَّصل بأنفها، دقات قلبها مضطربة، كانت تلهث بعنف. أرادت أن تحرّك يدها، فلم تستطع بسبب إبرة المغذي المنغرسة فيها!، سمعت حولها أصواتًا مرتبكة، ثمَّ ميَّزت امرأة تقترب منها، وبيدها طفل رضيع، وضعته بجوارها على السرير، قائلة:

- الحمد لله على سلامتك، هذا طفلك الوليد.

تأمَّلت الطفل بعينين تفيضان لهفةً وشوقًا، وابتسمت.. أغلقت عينيها، وسكنت حركتها، ثمَّ همد الجسد..!

جسَّت الطبيبة نبضها، ثمَّ حرَّكت رأسها بيأس. حملت الطفل، وأعطته لإحدى الممرضات، قائلة لها:

- أرسلوه إلى ملجأ الأيتام، واكتبوا في بياناته:

(مجهول الهوية.. وُلِد في زمن الحرب!)



عقل للإيجار

كنت وحيدًا في المكتب ذلك الصَّباح، أُطالع الصُّحف المتراكمة على طاولتي منذ عدَّة أيام، في محاولة يائسة لقتل الوقت..!

المطر يهطل بغزارة في الخارج، وكأنَّما تحوَّلت السماء إلى قِربة مثقوبة تصبُّ الماء على الأرض صبًّا. وأنا حبيس مكتبي منذ الثامنة صباحًا، دون مراجعين أو زوَّار، وقد قاربت الساعة الحادية.. ولا أمل بتوقُّف المطر، فالغيوم السوداء ما برحت تتداعى وتتجمَّع!

لم أكن يومًا من عُشَّاق الجرائد، ومتابعي الأخبار، ولكنَّها كانت - هذا الصباح- وسيلتي الوحيدة لطرد مشاعر الضيق والاكتئاب التي بدأت تتسلل إلى نفسي مع الفراغ! عناوين كبيرة لأخبار السّياسة والاقتصاد.. مقالات مختلفة، يعارض بعضها بعضًا، وتجمعها معًا صفحة واحدة!، تجاوزتُها إلى الصَّفحات الداخليَّة.. الرياضة.. الفن.. الأدب.. وتقرير عن (المصحَّة) أو دار المجانين.. وما كان ليشدَّني التقرير لولا تلك الصُّور التي تربَّعت على صدر الصفحة لنزلاء تلك الدار! صورة واحدة منها -فقط- أعادتني إلى الوراء، أطوي ثلاثة وعشرين عامًا من عمري دُفعة واحدة.. لأغرق في عفونة جرح قديم ظننته اندمل، ولا يبدو كذلك!

مزَّقتُ الصفحة التي حوت التقرير، وطويتها في جيبي.. تناولت مِظلتي، وارتديت معطفي وخرجت...

تعود علاقتي بالمجانين إلى ما قبل ثلاثة وعشرين عامًا...

كنت صبيًّا في السَّابعة من عمري وكان لأبي دكان لبيع المواد الاستهلاكية والحلويات، ولأنَّني ذريَّة أبي الوحيدة؛ عدَّني ساعده الأيمن، يعتمد عليَّ حين أعود من المدرسة في بيع حلويات الأطفال التي أعرف سعرها جيدًا، بل أحيانًا يترك الدكان على عاتقي ويخرج لشراء ما ينقصه من بضائع، فكنت حينها أبيع ما كتب أبي سعره عليه وطالته يداي من فوق الرفوف القريبة، وأعتذر عن الباقي بأنّي -فقط- حارس للدكان!

كانت ثقتي بنفسي وإحساسي بالفخر يزدادان كلما مرَّ أمام الدكان أحد أصدقائي أو زملائي في المدرسة، فأحاول تقليد أبي في كلامه وحركاته لأبدو كبيرًا ومسئولًا في نظر الزبائن فيمتدحونني فيما بعد عند أبي.. أبشُّ لهذا وأرحّب بذاك، وأُسرع بتلبية الطَّلبات التي أستطيعها، مزيّنًا وجهي بابتسامة عريضة، أُتمّمها بعبارات أبي المعتادة:

- (تفضَّل)، (أي خدمات أخرى؟)، (على الرحب والسعة)...

لا يُخيفني في مجلسي هذا إلاَّ شخص واحد.. إذا أقبلَ مارًّا اختبأتُ تحت الكرسيّ.. وغالبًا ما يمرُّ!

أختلس نظرات مرعوبة إليه.. شعره مجعَّدٌ ومُلتفٌّ كزنبرك نحاسيّ طويل، يتدلَّى على كتفيه العريضتين، ولحيته طويلة سوداء مشوبة ببعض البياض.. يرتدي دائمًا قميصًا ممزقًا من الصدر والكتف، عددتُ يومًا مُزقَهُ فكانت خمسًا موزَّعة من الأمام والخلف!، أما سرواله فمهترئ إلى حد كبير، وقد تلاشى لونه الأسود خلف ركام الأوساخ التي طغت عليه، فأحالته رماديًّا باهتًا، وقد كان يربطه بحبل عريض مفتول!!

عيناه خضراوان جاحظتان يعلوهما حاجب كث.. وأسنانه صفراء متآكلة من فرط التدخين.. كُنَّا نُطلق عليه: (المجنون جعفر)

توَقَّفتُ على الرَّصيف علّي أجد سيَّارة أجرة أستقِلُّها، ولفحات الهواء الباردة تصفع وجهي بقوَّة في هبوبها، كأنَّما تعاقبني حينما تحدَّيت سُلطانها وخرجت، بينما يقبع الناس الآن خلف شاشات التلفاز، يحتسون القهوة والشاي، والمطر ما زال يهمي بغزارة مكوِّنًا بِرَكًا من الماء تُغطِّي الأرصفة والشوارع.. دسستُ يديَّ في جيبيَّ طلبًا للدفء، فلامست نقودًا معدنيَّة كنت قد نسيتها فيهما..

كان المجنون يمدُّ لأبي نقودًا معدنيَّة – دومًا– لا أعلم من أين يأتي بها!، ويتمتم بكلمات لا معنى لها، ويشير إلى الرَفّ المجاور لأبي، حيث تُوضع علب السجائر دائمًا،... فيُعطيه أبي منها، وينصرف.

حاولتُ مرَّة أن أقف بجوار أبي عندما جاء لشراء السجائر، لكن ما إن التقت عيناي بعينيه الخضراوين الجاحظتين، حتَّى شعرتُ بقشعريرة تسري في جسدي، فأسرعتُ بالاختباء!

لم نكن نعلم من أين يأتي؟ وإلى أين يذهب؟ ومع أنَّه لم يكن يؤذي أحدًا في طريقه إلَّا أنَّ هذا لم يكن شعوري وحدي نحوه!، فما إن يمرَّ بشارعنا حتَّى يختبأ جميع الصبيان والبنات في منازلهم خوفًا وفرقًا! وكنتُ غالبًا ما أختبئ في دكان أبي!

توقَّفت – أخيرًا– سيَّارة أُجرة، سألني سائقها:

– إلى أين؟ فقلت:

– إلى دار المجانين!

انطلقت السيَّارة تنهب الشوارع الخالية.. تأملت المدينة الغارقة في المطر لدقائق معدودة، قبل أن أُسْلِم عقلي ومشاعري للغرق مرَّة أخرى في لُجَّة الذكريات...

كان يومًا ماطرًا كهذا، وكنت وحدي في الدكان، أحرسه وأبيع ما تيسَّر لي.. حين مرَّ المجنون من شارعنا.. وما إن لمحت طيفه في أوَّل الشَّارع، حتَّى انتفضت من مجلسي واختبأت!، أختلس النظرات بين الفينة والأخرى إلى باب الدكان المفتوح على مصراعيه.. فأبصرت قامته المديدة وهو يقترب من الدكان، ويتمتم بعباراته المعتادة التي لا يفهمها أحد.

انكمشت في مكاني، وامتنعت عن التنفس علَّه يذهب، وموجة هائلة من الرعب تجتاح كياني.. دعوت في سري أن يعود أبي حالًا.. ولكنه لم يعد!

تنازعتني مشاعر الخوف من المجنون والخوف على الدكان.. حتى تغلَّب إحساسي بالمسؤوليَّة على خوفي.. فاستجمعت شجاعتي وخرجت من مكاني!

تبسَّم لمرآي، وكأنَّما كان يعلم أين أنا طوال الوقت فظلَّ مكانه لا يبرحه، منتظرًا بروزي!، وأشار إلى رفّ السجائر واضعًا قطعة نقود معدنيَّة على الطاولة، فأعطيته عُلبة كاملة حتى لا يعود مرة أخرى!

تناولها مني مبتسمًا، وقبل أن ينصرف، أخرج من جيب سرواله المهترئ مُغلَّف شيكولاتة من نوع فاخر لا نبيعه في دكاننا، ووضعه على الطاولة.. ثم غادر!

لم أخبر أحدًا بهذه الحادثة أبدًا، ولا حتى أبي..

ومنذ ذاك اليوم أصبحت والمجنون أصدقاء، وكلما مرَّ من أمام دكاننا سارعت بإعطائه سيجارة، اختلسها خفية من أبي، فيُعطيني مُغلَّف الشيكولاتة الفاخر!. وظلت تلك العلاقة سري الخاص!

ومرت السنوات.. وصرت شابًّا أستلم دكان أبي بعد عودتي من الثانوية، بعد أن كبر، وهدَّت أمراض الشيخوخة جسده. وبدأت الأوضاع الاقتصادية تتدهور في بلادنا، وتأثر دكاننا بذلك، فخلت أكثر الرفوف من بضائعها..

وطبول الحرب القادمة من الشمال تعزف أوتارها، ويصلنا ضجيجها المقترب من قنوات الأخبار، وصفحات الجرائد: جماعات متمردة.. حصار العاصمة.. انهارت العملة.. سقطت العاصمة في أيدي المتمرّدين.. هرب الرئيس.. وأعلن أبي إثر ذلك إفلاسَهُ، وأغلقنا الدكان!

توقَّفت السيَّارة أمام الباب الحديدي الكبير لفناء الدار، فترجَّلت عنها، وسرت وسط ممر مزدان بالأشجار والزهور، وقد اغتسلت أوراقها وانتعشت تحت وابل المطر!. فأعادت إليَّ ذكرى بعيدة لقريتنا الهادئة الوديعة...

كانت الأحداث المؤلمة تتوالى علينا، حتى حُوصرت مدينتنا.. فهبَّ الشباب يدافعون عن الأرض والعرض.. ووضع أبي يومها بندقيَّة كبيرة بين يديَّ، ولم يَعبأ لجزع أمي، وولولتها، حين رأتها معي، وقال:

- هَلُمَّ فقاتل!

فانضممت إلى المقاومة.. وقاتلت..

وفي ليلة قمريَّة مرعبة، اختلطت فيها أصوات الأسلحة بتكبيرات المساجد المنادية على الجهاد، لمحت قنَّاصًا فوق إحدى المباني يُجهز على الجرحى من رفاقنا.. غلى الدم في عروقي حينها، وتفجَّر بركان من الغضب في قلبي.. فصمَّمت أن أقتله مهما كلَّفني الأمر...

صعدت المبنى بهدوء، أتلمَّس طريقي في الظلام... وما إن دفعت باب السَّطح حتى كانت ماسورة بندقيَّة القنَّاص تلتصق برأسي!

ثوان بدت لي كدهر، وأنا مغمض العينين، منتظرًا رصاصة الموت.. ولما لم تأت فتحتهما ببطء، فأبصرت ملامح القنَّاص واضحة تحت ضوء القمر.. شعر مجعَّد ملتف طويل، عينان خضراوان جاحظتان، تسكنان تحت حاجبين كثين، يرتدي سروالًا من الجينز، وقميصًا مُبقَّعًا كقمصان الجيش..

- المجنون جعفر؟!!

صرخت باستنكار.. فتبسَّم بتهكُّمٍ وهو ينتزع بندقيَّتي من يدي، ويلقيها بعيدًا، قائلًا:

- اترك المقاومة، وسأعفو عنك؟!

اعترتني الدَّهشة إلى حدّ الذهول، حين فهمت العبارة التي تلفَّظ بها، وأنا الذي كنت أتوقَّع منه تمتمات غير مفهومة، كعهدي الماضي معه!

- عميل؟!

- وهل حسبتني أتجوَّل في الشوارع دون هدف؟!

- خائن!

أمسك برأسي ودفعني بعنف لألتصق بالجدار، ومال برأسه عليَّ حتى ألصق جبينه بجبيني، وحدَّق بعينيه الخضراوين مباشرة في عينيَّ، ولمحت صفَّ أسنانه الصَّفراء المتآكلة وهو يبتسم بسخريَّة، ويقول:

- سأتركك تغادر بسلام من أجل السيجارة التي كنتَ تجود بها عليَّ، بشرط أن تترك المقاومة، فإن رأيتك مرَّة أخرى هنا، فلن أتردَّد في إفراغ رصاصاتي في رأسك كما فعلت برفاقك!

ثم ابتعد خطوات عنَّي، وأشار ببندقيَّته إلى الباب، فتراجعت بخطوات مرتبكة خائرة، ووقعت على السَّلالم عدَّة مرات متعثرًا بحطام كرامتي المدمَّرة!

وتهاويت في منزلي لأسبوع مهدود القوى، جريح الكبرياء.. استوطنتني الحُمَّى، وسكنت رأسي الكوابيس، وجرت على لساني هلوساتٍ لا حدَّ لها... وسكبت أمي على رأسي أنهارًا من الدموع، ورفعت إلى السماء مئات الدعوات والابتهالات.. حتى برئت، وتحسنت صحتي... أما نفسيتي فظلَّت منكسرة حزينة.. ولم أجرؤ أن أخبر أحدًا بسريّ!

وغشيت أبي سحابة من الهمّ والقلق، وأشفق على نفسه أن يخسرني!، فجمع أغراضنا، ونزح بنا إلى قريتنا الرابضة في تخوم الجبال، تتباهى بلونها الأخضر الزاهي، ورذاذ المطر المنعش، وتلك الغمامة السَّاحرة من الضباب، والهدوء الذي ينشُدُهُ أبي لي.

واختفى المجنون من حياتي تمامًا، ولم أره بعدها أبدًا!!

ثلاثة وعشرون عامًا مرَّت علينا تترا، ورحلت وفي جُعبتها حكايتنا، حكاية الأفراح والأتراح التي تناوبت أرضنا وقلوبنا، وأنضجتنا في أتونها! حكاية جيلٍ نفض عنه زَغَبَ الطُّفولة مبكّرًا، وتأبَّط عزيمة الرجال.. حتى انتصر لأحلامه، وحقَّق آماله..!

سرتُ خلف المشرف حتى وقف أمام بهوٍ كبير ممتلئ بنزلائه من المجانين، وأشار إلى رجل مُسن أصلع، يجلس منفردًا في الزَّاوية، مُنهمكًا بقضم أظفاره، وقال: هذا مَن تبحث عنه!، ثم تركني أتقدَّم نحوه، وذهب...

التفتَ إليَّ عندما وقفتُ بجواره، ورأيت عينيه الخضراوين تشملانني بنظرة تائهة غائمة، فقلت له:

- ألا تذكرني؟

تمتم بكلمات غير مفهومة!

- هل عُدتَ مجنونًا حقًّا؟

انهمك في قضم أظفاره كأن لم يسمعني!

- أتذكُرُ ما فعلته بنا في الحرب؟

لم يُعرني أدنى اهتمام، وما زال يقضم أظفاره!

مِلتُ برأسي حتى ألصقت جبيني بجبينه، ونظرت في عينية مباشرة، فارتعد خائفًا، فهمست له:

- لا تخف، لقد أتيت لأقول لك - فقط- لم تكن تستحق العقل على كل حال!. ثم تركته، ومضيت.

رسائل عاشق

السماء حُبلى بالغيوم، والرياح تزفر بقوَّة وعنف، وكأنَّما تُنفّس عن غضب مكتوم! رائحة المطر تتسلَّل رغم النوافذ المغلقة! وأنا وحدي في غرفة المكتبة أتأمَّل عقارب الساعة الزاحفة بملل وضيق، وأرتب أكوام الكتب والملفَّات المتناثرة في وسط الغرفة بعضها فوق بعض، وقد غشيتها طبقة رقيقة من الغبار تزكم رائحته الأنوف!

لِمَ أمر جدّي أبي أن يشتري كُتبًا وملفَّات قديمة تعود ملكيَّتها للعجوز المقعد (سالم)، الذي توفى قبل أيام معدودة، وبأيّ ثمن يطلبه الوَرَثة؟!

زفرتُ بضيق وأنا أنفض الغبار عن كتاب ضخم، حين وقع من جوفه مظروف كبير مهترئ، وتناثرت منه بضع أوراق!

أسرعتُ أجمعها بحرص، وقلبي ينتفض وجلًا، فحين يعلم جدّي أن كتابًا تمزَّق بين يديَّ، سيصبُّ جامَّ غضبه عليّ..

تنفَّست بارتياحٍ حامدًا الله، فلم تكن إلَّا رسائل شخصية، مخفيَّة في جوف الكتاب!

هممتُ بإعادتها إلى المظروف، وحشره في أعماق الكتاب، كأنَّ شيئًا لم يكن!.. حين وقع بصري على الحروف الكبيرة التي خُطَّت بها إحدى الرسائل التي وقعت مفتوحة أمامي، تناولتها بيد مرتعشة؛ خشية أن يدخل عليَّ جدّي، ويضبطني وأنا متوقف عن العمل، وقرأتها بدهشة بالغة:

(حين يتربَّع القمر بدرًا في حضن السماء.. وافني أمام الدار)

المرسل: «راجح» ١٢/ ٩/ ١٩٦٠م

«راجح» هو اسم جدّي! أتُرى جدّي كان عاشقًا؟!

تذكَّرت جدّي بجسده الطويل الأسمر، وعينيه الحادتين الغائرتين، وشفتيه المزمومتين دائمًا بصرامة، تحيط به أينما حلَّ هالة من الوقار والهيبة.. فنفضت تلك الفكرة عنّي، وتملَّكني الفضول بأقوى ما يكون، لأعلم الأسرار التي كان يُخفيها جدّي في شبابه!

ففتحت الرسالة الثانية، وقرأت:

(حين تراني في زاوية شارع القصر ابتسمْ؛ لأعلم ما وصلَ إليك، فأُرسلُ من يستلمه!)

«راجح» ٣/ ٤/ ١٩٦١م

فضضت الرسالة الثالثة بشغف أكبر، لم أعهده في نفسي قبلًا، ومررت بعينيَّ على الكلمات بنهم بالغ، ألتهم حروفها التهامًا، لأُطفئ الفضول الذي اعتراني، ولم تروِ العبارات المقتضبة التي خُطَّت بها الرسائل:

(لقد رأيت ابتسامتك، وأسعدني ما استلمته منك وأفادني كثيرًا.. شكرًا)

«راجح» ٥/ ٤/ ١٩٦١م

ما معنى (أفادني)؟ تساءلت في نفسي باستغراب! أفهمُ لِمَ قد يُخاطب الشَّاب محبوبته بلفظ ذكوري، لكن لم أفهم مغزى (أفادني) هنا! تبسَّمت باستمتاع حين خطر في بالي أنَّها ربما كانت تدعمه بملخَّصات الدروس، فجدّي ولا بد قد كان في هذا العام طالبًا في معهد ما!

أفرغت مظروف الرسائل على الأرض، وفتحتها جميعًا، واحدة تلوَ الأخرى، وقد تملَّكتني الدَّهشة البالغة لما تقرأه عيناي:

(في عمق الليل الطويل.. حين تلألأت النجوم على صفحة السماء.. زارني محبٌّ.. وترك عندي ما تهواه أنفسنا، ونحتاجه لمصائرنا!... بلّغ!)

«راجح» ٢٥/ ٧/ ١٩٦٢م

(الذئاب لا يجب أن تعوي في الليل فقط إذا ما غزت الضباع مغاورها، أنا وأنت وهم قد حان لنا أن نلتقي تحت شمس الصباح المشرقة... بلّغ!)

«راجح» ٢٤/ ٩/ ١٩٦٢م

(إنَّ شمس الصباح بقدر ما هي جميلة ومشرقة.. قد تكون حارقة وجبَّارة.. فاحذر!)

«راجح» ١/ ١٠/ ١٩٦٢م

(حان وقت أذان الفجر.. استعد لصلاة طويلة لا نعلم متى تنتهي!)

«راجح» ١٤/ ١٠/ ١٩٦٣م

(الخمسة عشر احتضنتهم الأرض بحنان.. اقرأ الفاتحة بصمت، وصلّ!)

«راجح» ١/ ١١/ ١٩٦٣م

(طوفان الحريَّة يغمر كلَّ شيء.. قريبًا ستنقشع الغيوم، وتبزغ شمسنا!)

«راجح» ٢/ ٨/ ١٩٦٤م

(لا رسائل بعد اليوم.. سنكون معًا على الجبهة.. فإمَّا حياة كريمة، وإمَّا موت نظيف شريف!)

«راجح» ١٤/ ١/ ١٩٦٥م

لم تبقَ بين يدي إلا رسالة واحدة، كُتبت بخط مائل ومختلف عن كل الرَّسائل السابقة، فضضتها بانتباه، وأخذت عيناي تلتهم الحروف الماثلة على صفحتها أمامي:

((صديقي «راجح»:

تمنَّيتُ لو كنتَ معنا اليوم لترى شمسنا وهي تُشرق من جديد، وتتنفَّس معنا عبق الحريَّة، وترى رياحنا وقد هبَّت تُطارد الغيوم السَّوداء من فوق أرضنا.. لتُعلن الجلاء!

ليتك ترى معي أرضنا الآن وقد اغتسلت بدمائكم الزكيَّة من أدران الاغتصاب، وتطهَّرت!

كُتب لي أن أعيش لأرى هذه اللحظة التاريخية المجيدة.. وقد كنتُ أشتاق أن ألحق بك، ولكنَّها الأقدار أبت أن يغادر جسدي الأرض، واكتفت بأن تلحق قدماي بعالم السماء!

رحمك الله وجميع شهدائنا)).

«سالم» ٣٠/ ١١/ ١٩٦٧م



،، وَبَعْضُ الدُّمُوعِ تَستَحِي أَنْ تَذرِفَهَا العَينَانِ..

فَيَبكِيهَا القَلَمُ! ،،

سماح باديان

العالم في عينيك

كانت تنُطُّ على الأرائك، تضحك وتلعب، تدور عليه وتمازحه، شاغلته كثيرًا...، وهو يرغب بقراءة جريدة الصَّباح، والاطّلاع على أخبار العالم. فأعطاها ورقة بيضاء، وأقلام تلوين، وقال لها:

– اذهبي وارسمي العالم الذي تحبينه!

فرحت الطفلة كثيرًا بالورق والألوان، وهرعت إلى غرفتها لترسم...

رسمت شمسًا وبحرًا وجبالًا، ولوَّنتها بألوانها الزَّاهية المشرقة، ثم أسرعت إلى أبيها، وابتسامتها البريئة تزيّن صفحة وجهها الجميل، لتريه لوحتها الصغيرة...

نحَّى الأب الجريدة عن وجهه قليلًا، ونظر في رسمها، ثم هزَّ رأسه دون اكتراث، وأعادها إليها، قائلًا:

– جميلة، ولكنَّ العالم الذي تحبينه أجمل!.. ارسمي العالم الأجمل الذي تحبينه..

عادت الطفلة إلى غرفتها، محت الشمس والبحر والجبال، ورسمت وردًا وأشجارًا محمَّلةً بالثمار!!

وعادت مسرورة إلى أبيها، تريه ما أبدعته أناملها الصغيرة..

نظر الأب بطرف عينيه إلى الورقة في يديها.. وعاد للقراءة في جريدته، قائلًا:

– ما زال هناك شيء أجمل في العالم، تستطيعين أن ترسميه!

ركضت الطفلة إلى غرفتها، ومحت الورد والأشجار والثمار، وتناولت القلم الأسود، وملأت الورقة خطوطًا سوداء قاتمة.. ثم عادت إلى أبيها!

نظر الأب بطرف عينيه إلى الورقة، فلم يفهم ما فيها! تناولها من يديها، ووضع الجريدة جانبًا، ودقق النظر.. فلم يستوعب أيضًا ما ترمي إليه صغيرته برسمها هذا!!

فنظر إليها متسائلًا:

– ما هذا؟!

ضحكت ببراءة ومرح، وطبعت قُبلة صغيرة على خده، وقالت:

– (العالم الذي تُحبه أنت يا أبي!).





الغرفة الأولى:

قطرات الماء تسيل على وجهه في أخاديد صنعتها يد السنين، غلَّف سواد الليل ألوان الحياة، تحسَّس المكان بيديه، دون أن يشعل نورًا يزيل حُجُبَ الظلام المتراكمة، لئلاَّ يشعر به أحد، وقعت يداه عليها أخيرًا، عرفها بملمسها الناعم، وبطانتها الليّنة، فرشها على الأرض، ثم وقف عليها وكَبَّر!

الغرفة الثانية:

فركت عينيها، ومطَّت يديها بتثاقل، أضواء المصباح تَرسُمُ أطيافها على الحائط، ألقت نظرة خاطفة إلى الساعة: الثانية بعد منتصف الليل. تناولت كوبًا آخر من القهوة، ثمَّ عادت لتدفن نفسها بين الأوراق والكتب من جديد!

الغرفة الثالثة:

سكونٌ موحش وظلام يَطغى على المكان، بصيص ضوء خافت ينبعث من أحد الأركان، عيناهُ ساهمتان، مصوَّبتان إلى الشاشة الصغيرة القابعة بين راحتيه، تتراقص الصور أمامه كخيالات ليليَّة هائمة، تبسَّم بتلذذ واستمتاع، وعادت أنامله تتحرَّك بينها بخفَّة، لتكشف مزيدًا من المستور!

الغرفة الرابعة:

ركام من الأغطية يغلّف الجسد المتهالك على السرير، وصوت أنينها الخافت يشق سكون الليل البهيم، يدها المرتعشة تسبح في الظلام، تتلمَّس ما حَوْل المكان، التقطت الحبة وأودعتها ما بين الشفتين، شدَّت الأغطية عليها، هدأت حركتها، وبقي صوت الأنين!



درس الوطنية

وقف معلم الوطنية أمام تلاميذه في الصف الأول، شارحًا لهم معنى الوطن، وواجبهم نحوه.. كان قلقًا ومرتبكًا في بداية الحصَّة، فهذه المرَّة الأولى التي يُقدّم بها درسًا نموذجيًّا في حضرة وزير التعليم ونائبه، وعدد من الموجهين التربويين من العاصمة، بالإضافة إلى مدير المدرسة، ووكيلته التي اختارته لهذه المهمة، حين انتحت به جانبًا قبل أسبوع، قائلة له:

- شرّف وجوهنا، واختر الدرس الذي تريد، المهم أن يكون لائقًا بمقام ضيوفنا، ويطربهم سماعه!

ظل أيَّامًا يفكر، ويستشير، ويتخيَّر...

حتى قرَّ قرارهُ على درس: (واجبنا نحو الوطن).

أسهب في الشرح، وضرب الأمثال قديمها وحديثها، وذكر المناضلين والأبطال، والثورات والثوار، ذكَّرهم بعمر المختار، وراجح لبوزة، ومحمد الدرَّة، وأحمد ياسين، وتطرَّق إلى نضال رئيس الدولة، ووزرائه ومستشاريه، وأعضاء مجلس النواب...

أسعده مرأى علامات الرضا، وابتسامات الفرح المطلَّة على ملامح الضيوف الجالسين في الخلف، فاستفاض مزهوًّا بنفسه، وبقدرته الفائقة في الشرح، واستحضار الأمثال..!

ثم قال مختتمًا درسه، الذي لم يستوعب معظمه طلَّابه الصغار:

– يا أولاد إنَّ حب الوطن من الإيمان، والأوطان تكافئ أبناءها الشرفاء الذين يناضلون من أجلها، فمن يخبرني بماذا يكافئ وطننا المناضلين؟

رفع "صادق" يده، وقال:

– بجنازة كبيرة، ومعاشٍ صغير، وقبر بشاهد مرتفع!

ذهل المعلم لما سمع، وارتبك، وتلعثم لسانه حين هبَّ الوزير من مكانه، وحدَّجه بنظرة حادَّة، قبل أن يسأل «صادق» بلهجة حاول تصنُّع اللُّطف فيها:

– من أخبرك هذا؟

فأجاب بسعادة، وقد زيَّنت الابتسامة البريئة وجهه الأسمر الصغير:

– أُمّي! عندما زُرنا قبر أبي الشهيد بالأمس!



على الهامش

أشرقت الشمس، وبعثت أشعَّتها تلوّن الدنيا بألوان الصباح المشرقة، قطرات المطر ما زالت عالقة على النوافذ وفوق أسطح المنازل، وأصوات العصافير المغرّدة على الأغصان تقطع سكون الفجر الهادئ، لتضيف روعة للمكان وللزمان، وإلى جانب الجسر في أحد المنازل في الأطراف القصيَّة من المدينة، طفل في السادسة من عمره يسرع في ارتداء معطفه القديم، ليقيه برودة الجو في هذا الوقت المبكر.

صرخت به أمُّه، وهي تضع جلبابها على رأسها، لتخرج إلى محطة الباصات: هيَّا أسرع، لتصل قبل أن يُقرع جرس الطابور. فخرج راكضًا، دون أن يتناول شيئًا يُسكت به قرقرة معدته الخاوية، فالمدرسة بعيدة، والطريق طويل!

عندما وصل إلى بوابة المدرسة، كان التلاميذ ما يزالون يتوافدون، حاملين معهم حقائبهم وعلب طعامهم، وقف لاهثًا عند البوَّابة لدقائق، يلتقط أنفاسه المتقطّعة!.

ثم جلس على الحجر الكبير عند طرف البوَّابة الأيمن، حيث يجلس كل يوم، ومدَّ يده عن آخرها، باسطًا راحتها أمام التلاميذ الداخلين، وبصوته الصغير المرتعش، أخذ يردد:

- (أعطوني مما أعطاكم الله، حق الإِفطار يا إخوان، الله يكرمكم!)

على الأطلال

شدَّت جسدها بثقل، أزاحت ركام الأغطية عنها، وجلست على طرف سريرها الأبيض.. العصافير تُزقزق في شرفتها بصخب، تلتقط الحبَّ الذي نثرته لها في الصباح!

استرخت في جلستها قليلًا، ثمَّ تناولت ألبوم صورها تتأمَّلها بعمق:

صورتها وهي في مهدها الأخضر وزغب الطفولة يتناثر على رأسها الصغير.. صورتها وهي طفلة بشعرها الأسود القصير، وضحكاتها الشَّقِيَّة ترتسم على ملامح وجهها.. صورتها في ثوب المدرسة، وضفيرتاها السوداوان تنسدلان على كتفيها.. صورتها بمعطف التَّخرُّج الأسود، ترفع شهادتها عاليًا بفخر، وخمارها الأنيق السابغ يستر تحته شعرها الأسود الطويل.. صورتها في ثوب زفافها الأبيض، مبتسمة بحياء، ويدها في يد رفيق حياتها، وقد غطَّت الطَّرحة البيضاء المطرَّزة نصف التَّسريحة، وغُرّتها السوداء تزيّن وجهها...!

تنهَّدت بعمق وهي تضع الصور جانبًا، وتنهض من السرير لتقف أمام المرآة الكبيرة في غرفتها.. فلا ترى إلَّا رأسها الأصلع الخالي من الشعر!!

القات

جلس الطفل بجانب والده، يُراقبه وهو يحشو فمه بأوراق القات.. كان الوقت ظهرًا، والشمس تُرسل بحزم أشعَّتها الحارقة على ربوع المدينة، وقد قبع الناس في منازلهم هربًا من موجة الحرّ الشديدة، فلما انتفخ خد والده الأيسر بأوراق القات، سكب عليه كأسًا من الماء البارد!!

تفاجأ والده بفعله، فصرخ به ووبَّخه بعنف، ثمَّ عاد إلى جلسته المسترخية، وقد اتكأ بأحد مرفقيه على وسادة صلبة كبيرة، وشغَّل مسجل الموسيقى بأعلى صوت، وسكن في مكانه طَرَبًا، مُنتشيًا... وبعد دقائق معدودة إذا بالطفل يعاود الكرَّة مرةً أخرى.. ويسكب كأسًا كبيرة من الماء البارد على وجه والده وملابسه...!

فقدَ الوالد رباطة جأشه، وتملَّكه الغضب بأعنف ما يكون، فضرب الطفل ضربًا مبرّحًا، حتى ألقاه على الأرض باكيًا متألمًا..!، فأسرعت إليه جدَّته تضمُّه إلى صدرها، وتمسح دمعاته، وتهدئ روعه، ثم سألته:

– لماذا تسكب الماء على والدك وهو (يُخَزّن[1]) القات؟ لقد أزعجته!

فقال بصوت متهدّج، يتقطَّع بشهقاته:

---

(1) – يخزن/ يمضغ القات.

- عندما (قرحت[١]) أسطوانة الغاز بأمي كنتُ في المدرسة، وماتت دون أن أراها.. وسمعتك تقولين اليوم (سيقرح[٢]) القات بأبي بعد الغداء.. فخشيت أن يموت أيضًا، ويتركني وحيدًا!



(1) - قرحت/ انفجرت.

(2) - يقرح القات/ يبلغ الكيف غايته



الفهرس